فرناندو بيسوا

الباب
وقصص أخرى

إعداد وترجمة
سعيد بنعبد الواحد

المركز الثقافي العربي

فرناندو بيسوا

الباب

وقصص أخرى

الكتاب

الباب وقصص أخرى

تأليف

فرناندو بيسوا

إعداد وترجمة

سعيد بنعبد الواحد

الطبعة

الأولى، 2016

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-805-3

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 303339 0522 ـ 307651 0522

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

المحتوى

تقديم

«لا وجود لأية قاعدة. كل الناس استثناءات لقاعدة لا وجود لها». بهذه العبارة يضع فرناندو بيسوا (1888-1935) أحسن تعريف لشخصيته وكتابته. ولعلها تنطبق على نصوصه النثرية أيضاً، وخاصة القصصية التي، وإن كنا نستشف من خلالها تأثير بعض معاصريه، إلا أنها تبقى كتابة سردية تتمحور حول أطروحة معينة تتخذ من الحوار والكتابة الشعرية والرمزية وسائل تعبير تمنحها قوة فكرية خاصة وجمالية متميزة.

لقد كان بيسوا شاعراً، وناثراً، ومنجِّماً، ومقاولاً، ومفكراً اقتصادياً، ومخترعاً. ولعلّ تعدّد هذه الصفات وتداخلها الغريب في شخصيته هو ما تعكسه هذه النصوص القصصية التي نقدِّمها اليوم للقارئ العربي. ورغم هذا البُعد الإيديولوجي الواضح، فإنّ بيسوا قد وضع عشرات القصص التي تختلف قيمتها الأدبية والفنية من نصّ إلى آخر نظراً إلى عدة عوامل. فهناك، مثلاً، قصص بوليسية على طريقة بو، وهناك أيضاً نصوص ذات بناء رمزي وشكل حكائي، لكنها تظلّ نصوصاً قليلة ومتفرِّقة تبقى صيغتها النهائية موضع تضارب بين الدارسين والمحققين لما تركه من مخطوطات، وهناك أيضاً قصص ذات بُعد فانتاستيكي وخيالي، تبرهن على شغف بيسوا

القارئ بهذا النوع وتأثره بأكبر كتّابه في اللغة الإنجليزية مثل إدغار آلان بو وغيره.

ونقدِّم هنا خمسة نصوص قصصية تُعتبر من أشهر ما كتبه فرناندو بيسوا في هذا الجنس الأدبي وهي «الباب» (1906)، «عشاء جد متميز» (1907)، «السّالك» (1917)، «سرقة في مزرعة فِنْياشْ» (1918) و«البنكي الفوضوي» (1922)، بالإضافة إلى خمسة نصوص سردية يعتبرها الكاتب «حكايات ذات مغزى». لقد اخترنا هذه النصوص لأنها تمثل أشكالاً قصصية مختلفة ونصوصاً مكتملة اتّفق معظم دارسي أعمال فرناندو بيسوا على صيغتها النهائية وقيمتها الأدبية والفنية.

تنتمي قصتا «الباب» و«عشاء جد متميز» إلى النصوص الأولى التي وضعها فرناندو بيسوا باللغة الإنجليزية تحت اسم مستعار هو ألِكْسْندر سيرْشْ. وقد اعتمدنا في ترجمتها على صيغة محقّقة باللغة البرتغالية من إنجاز الباحثة ماريا ليونور ماشادو دي سوزا مع مراعاة أسلوب النص الأصلي وخصوصياته.

تعتبر قصة **الباب**، رغم طابعها الشذري وغموض بعض فقراتها، محاولة لمعالجة ظاهرة الجنون من وجهة نظر فلسفية، تعبِّر عن رؤية تحتفي بالعبقرية، وتحليلاً ذاتياً لتناقضات الكاتب الشخصية. أما نص **عشاء جد متميز**، فيمثل نموذجاً لما كتبه فرناندو بيسوا عن النفس البشرية في قالب فانتاستيكي يتخذ من حكاية مرعبة ذريعة أدبية للكشف عن أسرار الانحراف الذي يؤدي إلى الجنون والعبث.

أما قصة **السالك** التي وضعها الكاتب باللغة البرتغالية سنة

1917، ووقّعها باسمه الحقيقي، فرناندو بيسوا، فتمثّل جانباً من طبيعة الأعمال النثرية للشاعر البرتغالي، وخاصة طريقته الخاصة في الكتابة التخييلية. وقد ظهر هذا النص للوجود بعد العثور على عدة مسودات لنصوص لم ينشرها الكاتب في حياته وصدر أول مرة في مجلة *Mealibra* البرتغالية سنة 2009. وقامت الأستاذتان، آنا ماريا فْريتاشْ وتيريسا ريتا لوبيشْ، المتخصِّصتان في ما تركه بيسوا من مخطوطات ووثائق بالمكتبة الوطنية البرتغالية، بتحقيقه وترتيب فقراته وفق معايير دقيقة تراعي طبيعة المخطوط وانسجام النص وفقاً لأفكار وطريقة اشتغال الكاتب، وفي احترام تام للوثيقة الأصلية التي تضمّ بعض الثغرات والفقرات المبهمة.

وفي سنة 1918 كتب بيسوا قصة **سرقة في مزرعة فِنْياشْ**. ينتمي هذا النص إلى جنس القصة البوليسية الذي وضع فيه الكاتب نصوصاً مختلفة باللغتين الإنجليزية والبرتغالية. كُتبت هذه القصة باللغة البرتغالية، وقد اعتمدنا في هذه الترجمة على الصيغة التي نُشِرَت محقَّقة شهر مايو 2008 من طرف الباحثة البرتغالية آنا ماريا فريتاش، لكن هذه الطبعة لا تمثل صيغة نهائية للنص نظراً إلى الصعوبات والثغرات الموجودة في المسودات التي تركها الكاتب. لذا نقلنا إلى العربية بعض الجمل والفقرات ناقصة كما جاءت في الأصل الذي بين أيدينا. وتظهر في هذه القصة شخصية المحقِّق كْواريشْما الملقَّب بـ«فكاك الرموز»، كما تظهر في جلّ القصص البوليسية التي كتبها فرناندو بيسوا.

أما نص **البنكي الفوضي**، الذي يُعتبر أكثر قصصه تداولاً وانتشاراً، فيعبِّر عن انشغال الكاتب بقضايا عصره الاجتماعية

والسياسية. لذا جاء هذا النص في شكل حوار فلسفي يكاد يخلو من الفعل القصصي ليفسح المجال لفكر تجريدي خالص يعكس الهموم الفكرية والإيديولوجية للكاتب من خلال صوتين متباينين ومتناقضين.

كما كتب بيسوا عدة حكايات ذات مغزى، نقدم منها في هذا الكتاب خمسة نماذج. وهي عبارة عن نصوص قصيرة يختمها الكاتب أحياناً بتعليق يحمل عنوان «مغزى الحكاية». وتنمّ هذه النصوص عن الحسّ الفكاهي لدى بيسوا وقدرته على معالجة المواضيع الفلسفية والسياسية المعقّدة بتصوير كاريكاتوري لا يخلو من جرأة سياسية.

لكن بيسوا، عموماً، لم يكن قاصاً بالمعنى الكلاسيكي للمصطلح. فرغم أنّ الحكاية والشخوص حاضرة بقوة في نصوصه إلا أنها تتحرك في أجواء شعرية، ويتحكم فيها إيقاع هو غريب نوعاً ما عن إيقاع النثر القصصي العادي، بل يبدو من خلالها بيسوا فيلسوفاً، ومنظِّراً اجتماعياً، وسياسياً، وعالم نفس يحاول سبر أغوار الذات الإنسانية. لذا تطغى الفكرة والأطروحة على نصوصه القصصية، فتبدو الشخصيات كأنها الأصوات المتعددة التي تعبِّر عن فكر الشاعر/ الناثر في تضارب يعكس حيرته وتناقضاته.

إن الحديث عن فرناندو بيسوا لا يمكن أن يكون إلا حديثاً عن الاستثناء والتميُّز. فنحن أمام كاتب متعدِّد الأوجه، كتب الشعر بأكثر من قناع وشخصية أدبية صنعها لنفسه فكان كل ديوان يختلف عن سابقه فلسفة وجمالاً. وتناول في كتابته النثرية مختلف القضايا التي

عاصرها في السياسة، والمجتمع، والفن، وغيرها من المواضيع، فكانت آراؤه تتأرجح بين الحسّ الوطني والبُعد الفردي الخاص. وربما كان هذا التنوع في الكتابة والتمرُّد على أخلاقياتها العليا هو ما جعله يُعتبر أحد أكبر ممثلي الحداثة الأدبية في القرن العشرين.

المترجم

الباب

... «كل هذا يبدو لي حلماً، فكرتُ؛
لكن هل حياة الإنسان غير هذا الأمر؟
إنني أحلم بشكل أكثر غرابة من الآخرين،
هذا كل ما في الأمر».

كازوتْ[1]، «**الشيطان العاشق**».

ثمة معنى عميق للأشياء، تشابهٌ فظيع بين أرواحها يشعرُ منطقُنا بالرعشة تجاهه، لكن الشيء الذي لا يزال مهيمناً على القدرات العليا للإنسان هو الغريزة - وهي قدرات لا تزال غريزية - وبعض الناس ممّن يسمون مجانين، أو ربما مهووسين وحالمين، ينظرون إلى الأشياء في كنه جوهرها ولذلك يتألمون ويعانون من الحقد والكراهية. حينما يخاف مهووس مسكين من مقبض باب؛ حين يغمى على آخر عندما يسمع كلمة معينة أو يراها مكتوبة، أو عندما يشم رائحة ما، من يدري أنه يرى أكثر من بقية الناس، وأنه يسبر

(1) جاكْ كازوتْ (1719-1792)، كاتب فرنسي، صاحب الرواية الفانتازتيكية **الشيطان العاشق** (المترجم).

روح تلك الأشياء؟ مَن يستطيع أن يقول إنه، بحدسه الكبير، لا يجد دقة الحدس بكامله؟ كيف يستحيل عليه ألا يخشى أي شيء على الإطلاق؟ كيف يمكن لإحساس أن يكون من دون حافز، وكيف يمكن أن تنشأ ظاهرة من دون سبب؟

طبعاً، إن مقبض باب، أو أي كلمة مكتوبة أو شفهية، أو أي رائحة ليست، كما نراها، شيئاً يُولّد الخوف. إذا ما وَجَدَ شخص في هذا الأمر ما يخيفه، فبديهي أنه يرى الأشياء بطريقة تختلف عن طريقتنا. ستقولون إن الفرق يكمن في الشخص، وأن الشيء كما يراه هو يوجد في نفسه، سأرد عليكم بالقول إن الشيء كما نراه **نحن** هو في **أنفسنا**. هذا ما يدل عليه العلم ويثبته المنطق. اللون، والضوء، والصوت، كل هذا نسبي. الشكل، والزمن، والفضاء، هي أشياء نسبية أيضاً. لا وجود للأشياء، بل توجد أشياء نشعر بوجودها. ستقولون إنه واحد ونحن كثرة؟ لكن قد يكون هو أكثر تطوراً منا، ربما يسبقنا في مسار تطوره. إن أول إنسان كسَّر، ولو بشكل غامض ومحتشم، الغشاء الحيواني كان وحيداً، وعديدون أشباهه من القردة؛ فهل كانت نظرته إلى العالم أدنى أو أسمى من نظرة بقية أشباه البشر الذين ينحدر منهم، وهو يقف أمامهم لوحده؟

إن الأفكار العادية للبشر تختلف عن أفكار المجانين سواء في طبيعتها أو في درجتها فقط. إذا كانت تختلف في طبيعتها، فكيف لنا أن نقول إنها غير طبيعية؟ واستناداً إلى أيّ تجربة يمكننا أن نحكم عليها؟ وفوق ذلك، كيف نكون واثقين من أنها تمثل أول مظهر لشكل جديد من الحياة الفكرية؟ ثم، هل يمكن الدفاع عن هذه الفرضية؟ هل يختلف إنسان عن إنسان آخر في طبيعة قدراته الفردية؟

لا. لو كان الفرق فقط في الدرجة، كيف بإمكاننا نحن، ما دام تصورنا وإدراكنا للأشياء يختلفان من إنسان إلى آخر، أن نقول أين يوجد إنسان مجنون؟ لو كان كلّ إنسان حَكَماً لكان بقية الناس كلهم مجانين. ولو قال أحدهم إن الفرق بين الناس الأسوياء قليل، لكنه كبير بين الإنسان العادي والمجنون، فإنّ كلّ ما أستطيع أن أقول هو إنه حيث لا وجود سوى لدرجات فقط لا يمكن أن يوجد فرق. هذا الإنسان سوي، وهذا الآخر سوي أيضاً، إذ لا يختلف عنه إلا قليلاً؛ وذاك الثالث أيضاً، لأنه يختلف قليلاً عن الإنسان الثاني، ذاك السوي، وهكذا دواليك بدرجات طفيفة، بحيث إن كلّ البشر أسوياء إلى أن نقوم بمقارنة آخر إنسان فنجده سوياً مع الأول، الذي كان هو منطلقنا، فنُدرك أن الفرق بينهما هو الفرق الفاصل بين «المجانين» و«الأسوياء». فماذا يمكن أن نقول إذن عن المجانين؟ هل يمكننا أن نقول، دون الوقوع في الخطأ، إنهم مخطئون؟ هل يمكننا أن نؤكد بكل قناعة إن هؤلاء التعساء، بسبب «هذيانهم ومخاوفهم»، هم أقرب إلى الدوافع والأسباب الموجودة في كنه روح الأشياء؟

لكن يظلّ ثمة أمل. فعلى ضوء التطور والتقدم، أصبحت غريزة الحيوان في ذواتنا فكراً ووعياً، وما هو الآن غريزة في ذواتنا سيعرف تغييراً مشابهاً في أرقى وأسمى كائن نصبو إلى تحقيقه. إنّ الجنس الحالي يريد أن يفهم، لكن ساعة الإدراك لم تحِنْ بعد.

أولئك الذين تجاوزوا بالحدس درجة تطورهم، أولئك الذين تمرّدوا مُجبَرين على العادي، أدركوا من قرب، من حيث لا يعلمون، سرّ الكون، لأنهم لا يمكن أن يعلموا أكثر من هذا - إنهم

يشعرون بالسعادة وهم في الواقع سعداء لهذا السبب بالضبط. لو أنّ كلباً فكَّر مثلما نفكِّر نحن (فرضية مستحيلة)، ألن يعتبره بقية الكلاب رفيقاً مجنوناً، ألن يُبعدوه عنهم، أو ربما يقتلونه؟ سيقومون بذلك (مَن يشكّ في أنهم سيقومون بذلك؟)، لكن الضحية هو الأقرب إلى الحقيقة. هذا ما يحدث لنا أيضاً. وكما أنّ الحيوان الذي أتخيّله قد يخوض ذهنياً في شتى التعقيدات والفظائع بسبب وجود عنصر جديد في ذاته، عنصر يتجاوز طبيعته، فإنّ البشر الذين يعرفون أكثر من أشباههم الآدميين يعانون بسبب مخاوف غير عادية، وتطاردهم الأشباح والكوابيس. وكما هو الشأن بالنسبة إلى الكلب نظراً إلى وضعه الدوني سيكون (؟)[1]، فإنّ ضحيته أيضاً ستكون، رغم ذلك، أكثر قُرباً من الحقيقة. هذا ما يحدث لنا أيضاً. وكما أنّ الحيوان الذي أتحدّث عنه قد يجد نفسه ذهنياً يخوض في شتى التعقيدات والفظائع بسبب وجود عنصر جديد في ذاته، عنصر يتجاوز طبيعته، فإنّ الناس الذين يعرفون أكثر من أشباههم يعانون بسبب مخاوف غير عادية، تطاردهم الأشباح والكوابيس. وكما الكلب بوضعه الذهني المنحطّ، بالمقارنة مع غريزته الإنسانية، حين سيفكِّر لن يعلم أنه يمارس التفكير، وبالكاد سيشعر أنه يفكر، كذلك أولئك المجانين، حين يعرفون شيئاً أكثر من الآخرين، يشعرون أنهم يعرفون، لكن بواسطة فظائع لا يمكن قولها، وبسبب مخاوف يستحيل التعبير عنها.

إن إنساناً يشعر بالخوف يخشى شيئاً له علاقة بالغريزة الإنسانية،

---

(1) فراغ في المسودة الأصلية أشارت إليه محققة هذا النص بعلامة استفهام بين قوسين (المترجم).

وحين يفكر لا يدرك أنه يفكر، قد يشعر فقط أنه يفكر، كذلك هو حال المجانين، إذ حين يعرفون شيئاً لا يعرفه الآخرون، يشعرون أنهم يعرفون من طريق فظائع لا يمكن الحديث عنها، وبسبب مخاوف لا يمكن التعبير عنها.

إن إنساناً يشعر بالخوف يخشى شيئاً ما؛ إن إنساناً له رغبة يرغب في شيء ما، مهما كان غامضاً فهمُه لذلك الخوف أو تلك الرغبة التي يشعر بها. عندما يكون ذلك الأمر الذي يخشاه الإنسان، يكرهه، يرغب فيه، شيئاً يستطيع فهمه كغاية، أو كسبب لهذه الأحاسيس، شيئاً يمكن أن نخشاه، أن نكرهه، أن نرغب فيه، لا يمكننا أن نقول عن هذا الإنسان سوى أنه يخشى، ويكره، ويرغب، لكن، عندما يكون ذلك الأمر الذي يخشاه إنسان، ويكرهه، ويرغب فيه، شيئاً لا يمكننا أن نفهمه كمُثير للانفعال، شيئاً لسنا بقادرين على أن نخشاه، ونكرهه، ونرغب فيه، نعلن أن هذا الإنسان مجنون. كم هو خدّاع وكاذب كل هذا الأمر! يا له من تفكير حيوانات رائعة! تصوروا إنساناً رائعاً ومهذباً، نعرفه هكذا، وأنا الذي أعرفه حق المعرفة مقتنع أنه شرير، وذاك هو طبعه في الحقيقة. عندما أقول لكم إنه شرير، سأبدو مجنوناً، وذلك لأنني أرى ما لا ترون. لكني، لا أرى غير الحقيقة، أنتم مَن ترون أقلّ من ذلك. حاولوا أن تقنعوا إنساناً سوياً يجهل علم الكيمياء بأنّ الماء يتكون من غازين مختلفين. حاولوا أن تقنعوا زنجياً ذكياً بأنّ الشمس لا تتحرك في كبد السماء. لن تفلحوا. ما يراه الإنسان يؤمن به مادياً وذهنياً. وما لا يراه لا يؤمن به. الإنسان يؤمن في حدود ما يراه ولا شيء غير هذا. في العالم المادي، بالطبع، هناك مناظير فلكية، ومجاهر تساعد أياً

كان، وتقدِّم وسائل الإقناع. أما في العالم المعنوي، فليس ثمة مناظير فلكية، ولا مجاهر ولا أي طريقة كيف ما كانت تسعف مَن لا يرى بشكلٍ كافٍ. إن عيون الفكر - آه من هاته العيون! - ليس لها من طبيب. ترى كما خُلقت لترى.

إذن لا تقولوا إنه مجنون من يرتعش أمام مسمار، من يرتجف أمام حذاء، من يخشى الفضاءات الفارغة. لا تقولوا إن المتصوف يهذي، وأن لا شيء يطارد الإنسان الذي يقول إنه مطارَد. لا تقولوا شيئاً، لأنكم أولاً لا تعلمون - لأنْ لا أحد يعلم - ما معنى أن يكون المرء مجنوناً، وثانياً، لأنّ الأوضاع الفكرية لهؤلاء الأشخاص تفوق أوضاعكم الفكرية، فأنتم لا ترونهم، وليس لديكم أيّ إحساس بهم. ولا تقولوا إنها كذب تلك الأوهام الأكثر خرَفاً، والأحلام الأكثر غرابة. لا، لأنها حقيقة، حقيقة مثل الشمس والنجوم، حقيقة مثل العالم الذي نعرفه ونعيش تحت سيطرته.

إننا لا نعرف مَن يحلم، ولا كيف يحلم، ولا الأحلام، ولا معنى فعل الحلم. يبدو أن بعض الأشخاص يحلمون أكثر منا، ويسمونهم مجانين؛ لكن، نحن بدورنا نحلم، وبمزيد من الحلم، يحلم أقل أولئك الذين يسعون إلى أن يمحوا من كلّ شيء عيوب الإدراك.

................................(1)

طيب، كان بالقصر عدة دهاليز، وفي واحد منها، لا يميزه شيء مختلف عن الدهاليز الأخرى، كان ثمة باب لا تختلف في شيء عن

(1) تستعمل محققة النص الأصل مثل هذا السطر المتقطع للإشارة إلى تحول سردي في المسودة (المترجم).

بقية أبواب البناية، التي لم تكن صغيرة. وكانت الصالة التي يوجد بها هذا الباب عادية مثل الباب أيضاً. الفكرة الوحيدة التي أريد أن أوحي بها للقارئ هي الطابع العادي المطلق للدهليز، والصالة والباب؛ أريد أن يعرف أنه لم يكن هناك شيء ذو طبيعة خاصة أو تاريخية يجعل الباب فظيعاً أو ملغزاً. لذا فإن الحكاية التي سأرويها هي أكثر رعباً.

قضيت أولى سنوات طفولتي وشبابي في القصر. لم يكن خيالي ميّالاً للتاريخ، ولذا لم أكن أهتم كثيراً بالبناية؛ وبصفتي فناناً، كنت معجباً ببعض أجزائها، لكن أثر القصر على مخيلتي كان محدوداً نسبياً، أقل بكثير ممّا كان منتظراً. **إلا في نقطة واحدة** - ووحيدة - ستعرفونها بعد قليل. لست ممّن يسمون منحرفين؛ فطبعي، يجب أن أؤكد ذلك، فيه قليل من الاندفاع والطبيعة البدائية. أتمتع ببرودة الإنسان المثقف بالإضافة [...][1] إلى رهافة روح الفنان. لذا، لا أرى سبباً يبرِّر ما سأحكيه.

ذكرتُ **أنني تلقيت تربيتي** في القصر القديم، وبقيت هناك حتى أولى سنوات شبابي. هذا ما حدث، وأول ذكريات طفولتي هو أنني شخصياً أوجه ركلات إلى الباب الذي تحدَّثت عنه، أوجِّه له باندفاع **ركلة برجلي اليمنى**.

---

(1) كل ما يوجد بين معقوفين [...] يشير إلى عبارة أو جملة غير واضحة أو محذوفة من مسودة النص الأصلي الذي اشتغلت عليه محققة هذا النص، الأستاذة البرتغالية ماريا ليونور ماشادو دي سوزا (المترجم).

تلك هي الظاهرة الوحيدة ذات الطبيعة الاندفاعية أو المنحرفة التي أستطيع أن أذكرها في حياتي. تلك هي طبيعتها، وليس في ذلك أدنى شك. في شبابي، كلما مررت عبر الدهليز، بتؤدة أو بسرعة، نائماً أو مستيقظاً، كان يتملَّكني اندفاع لم أكن أتحكم فيه فأمارسه دائماً لأركل ذلك الباب برجلي اليمنى. أثناء ألعاب الطفولة، عندما كنت أفرّ مرات عديدة من أحدهم عبر الدهليز، كانوا يلحقون بي فأخسر اللعبة لأنني أتوقف لأوجِّه ركلات إلى الباب - وإذا ما نسيت، يكون ذلك أفظع، إذ أعود أدراجي لأوجه له الركلات - دائماً برجلي اليمنى. أذكر جيداً حادثاً يبيِّن غرابة هذا الاندفاع. ذات يوم، وبسبب أي شيطنة قد أكون قمت بها، سحبني أبي من يدي نحو الغرفة لأنال ما أستحق من عقاب. مررنا قرب الباب، وأنا في الجهة الأخرى بعيداً. بدأت للتوّ أخدشه، وأضربه وأعضه، وهو فعل صدر عني تجاهه وكان غريباً بالنسبة إليه. فبالغت في الخدش، والركل، والعضّ حتى أن أبي اضطر لإطلاق سراحي. ذهبت حتى بلغب الباب، ثم وجهت إليه ركلة وعدت إلى جانب أبي بوداعتي وخجلي المعهودين أمام العقوبة. لم يفهم أبي قط بوضوح سبب ذلك التمرد غير المسبوق. عند نهاية طفولتي وبداية شبابي، وقد أزلت رداء الكائن المادي، بدأ ذلك الاندفاع الفريد لركل الباب يشكل مادة لتفكيري القلق. بدأت أجري بعض التجارب على ذاتي.

لكن، قبل ذلك، قمت بمحاولات للتحكم في هذه الرغبة، دون جدوى دائماً. لم أتمكن قط من المرور قرب الباب دون أن أوجّه له ركلات، مهما كان الأمر الذي كنت أقوم به وأنا أمرُّ من هناك، ومهما كنت ساهياً وأنا أعبر الدهليز. في الطفولة، كان ذلك الاندفاع

خاصاً وغير واعٍ، لأنّ المرحلة لم تكن تدعو للتفكير. أثناء المراهقة، وقد ازداد وعيي بذاتي، كنت أفحص الاندفاع، دون جدوى، لكن بحزم، وأراقبه بتأنٍّ، أحياناً بشيء من التسلية، والتفكير الذي بدأ يصحو. وأثناء الشباب، تغيَّر شكل ذلك الاندفاع، بالطبع.

عندما بلغت مرحلة الشباب - أؤكد ذلك - أعي جيداً ذاتي وقد نضج فكري - لأنَّ مَن لهم طبيعتي ومزاجي نفسهما يتطورون ذهنياً بشكل مبكر - بدأت أبحث عن سبب هذا الاندفاع، وبدأت أحاسيسي تتغير. أخذ الاندفاع الفريد، أكرِّر ذلك، يسبب لي قلقاً في التفكير. فتحوَّل الشعور بالدهشة إلى شعور بالخوف. لقد حاولت من قبل التحكُّم في هذا الشكل الغريب للانحراف. صرت الآن أفحصه، وأحلِّله، وأجري عليه التجارب. كنت أحاول أن أتحكم فيه، لكني لم أستطع قط أن أمرّ قرب الباب دون أن أوجه له ركلة. كانت تجتاحني إغراءات فظيعة في ضرب الباب برجلي اليسرى أو ضربه أكثر من مرة؛ لكن دائماً يسيطر عليّ الخوف من ألّا أتحكم في ذاتي، ولا أبتعد كثيراً عن فعلي المعتاد. قلت «إغراء فظيع»؛ لأنه هكذا كان يبدو لي ساعة الاندفاع، رغم أنّ «أناي» العادي ينظر إليه كما لو كان تجربة بسيطة. لكن، عندما كان يسيطر عليّ الاندفاع، تنحصر نيتي في الخوف، ويَحُول رعب فظيع ومجهول دون أي شيء آخر غير الاندفاع. خوف من شيء ما مجهول وغامض، فظيع فظاعة الدافع والسبب الأعزلين أمام سبب الذعر.

بدأ الباب يستحوذ على فكري؛ بدأتُ أخشاه وأوجِّه له الركلة المعتادة تطيّراً: يُصلّي الإنسان ويقدِّم القربان لربّ يحتقره ورغم ذلك

يخشاه كثيراً كي يواجهه. كنت أفتح الباب بإحساس غريب في جلدي وأغادر الصالة بسرعة كبيرة. لم أكن أرغب بتاتاً في الذهاب إلى الصالة ليلاً، أطرق الباب، أدخل مرتجفاً، وأخرج بسرعة، وعيناي شبه مغمضتين. أنظر أمامي، أوجه ركلة أخرى إلى الباب، أغلقه وأفر إلى الجهة الأخرى من البيت حيث يجب أن أذهب. الشيء الفظيع ربما، والمخيف أيضاً في غموضه، ينهال عليّ بمخالبه البارزة؛ هذا هو الشكل العادي للخوف العميق، الخوف من المجهول.

لطالما سألتُ نفسي عن سبب كلّ هذا الأمر. هل ثمة في الباب - الذي ليس فيه ما يثير الانتباه - ما يجعلني أرتعش أمامه؟ هل للباب أيضاً روح تؤثر في روحي؟ قررتُ ألّا أوجِّه لها الركل مرة أخرى؛ قرار سديد، فكرتُ. دون جدوى، رغم ذلك؛ ما إنْ تحين اللحظة والاندفاع، حتى تتخذ أي محاولة للمقاومة بشكل مطلق ونهائي شكل إغراء، وفكرة تدنيس هي أكثر من حقيرة، فيصبح بالطبع ما كان عقلانياً بشكل كبير شيئاً مذنباً يصعب تصوّر إنجازه.

فكرت في شذوذي فوجدتُ ما يشبهه في بعض الأمراض العصبية. وا حسرتي! كان هذا تفسيراً بسيطاً جداً، لكنه للأسف لم يكن كافياً بالنسبة لي. يمكنكم أن تقولوا للمُصاب بداء العظمة إنّ الفكرة المتسلِّطة عليه عادية وسهلة التفسير؛ لكن ذلك بالنسبة إليه أكثر عمقاً، وواقعاً، وحقيقة. إننا، في حالتنا السوية، لدينا لستُ أدري أي مفهوم عن روح المجنون.

. . . .

لكن جاذبية الباب التي تفُوق الفظاعة بدأت تجثم على فكري.

حاولت أن أتخلص من تأثيرها لكني لم أكن أملك ما يكفي من الحزم. حاولتُ أن أكسر القواعد الخفية والفظيعة لهواجسي، لكن شجاعتي كانت عاجزة عن ذلك. وأخيراً، وصل بي الأمر إلى حالة لم أعُد معها قادراً حتى على منع نفسي من المرور عبر الممرّ حيث يوجد الباب، رغم أنه بإمكاني أن أختار طريقين أو ثلاث طرق أخرى لأصل إلى جهة البيت التي أقصدها. لقد امتدّ سحر الباب الجهنمي إلى الممرّ أيضاً. حاولتُ ألّا أسلك ذلك المعبر عندما تكون هناك ثلاث طرق أخرى، واحدة منها أقلّ طولاً. نجحتُ في بداية الأمر، لكن كلما فكرتُ أنه لا يجب عليّ أن أقوم بذلك، وأنه لا يمكنني أن أمرّ من هناك، كلما مررت، لأتبع تلك الطريق في نهاية الأمر دون تردُّد ظاهر، وروحي تهتز مترنِّحة بداخلي، يصيبني الجنون من خوفها ومعاكستها.

كنتُ وقتها في العشرين من عمري تقريباً. سافرتُ عدة مرات إلى العاصمة وهناك بقيت. عندما كنت أعود أجدُني تحت سلطة الباب. لذا حاولت أن أرحل بعيداً؛ لكن سرعان ما وجدتُني، أمام اندهاشي الكبير، حتى في لندن، منجذباً نحو القصر. لقد امتدّت سلطة الباب إلى القصر أيضاً. كنت أكره الباب وأخشاه، ولا يعجبني القصر؛ لكني لا أستطيع أن أبقى بعيداً عنهما. لم أكُن قادراً على التفكير في القصر؛ لو فكَّرت فيه، أجدني سجيناً للتو. وأخيراً، لم أكن قادراً على العيش بعيداً عن القصر، ولا عن الممرّ، ولا عن الباب. كنت أقرأ، أتأمل، أحلم، وأنا أمشي عبر الممرّ، وأطرق الباب برجلي اليمنى كلما مررت [. . .].

ربما لاحظتم من خلال حكايتي كيف وضحتُ أنني كنت أعتبر الباب كما لو كان كياناً ذا شخصية. هذا صحيح؛ كان أكبر خوف أشعر به تجاه الباب يشبه إلى حدٍّ ما الخوف من الأرواح، ذلك الخوف الذي لا نستطيع أبداً التحكم فيه، مثل الخوف الذي يشعر به الإنسان التَّقي تجاه ربّه. كان ثمة عنصران في خشيتي وانجذابي تجاه الباب: شخصية وغموض، إبهام وجهل. كان شيئاً، أعترف بذلك، يشبه رعب الجحيم وسحره. لكنه كان أكثر فظاعة، لأنه يجمع بين الغموض والإبهام وطابع الشخصية. بهذا الخصوص، كان لا يقلّ فظاعة عن الخوف من الأرواح، بل كان أكثر رعباً، لأنه كان يربط هذه الأفكار المتعلقة بالغموض، والسحر الغامض، والخوف غير المحدّد، والشخصية غير الواضحة والمرعبة بشيء مادي جداً، وعلى قدر كبير من الابتذال مثل باب، بهذا المعنى، في هذه العلاقة التي يستحيل وصف فظاعتها.

هناك شيء ربما يسأل عنه القارئ وله الحقّ في ذلك، وهو أيّ نوع من الركلات كنت أوجّه إلى الباب، هل كانت ركلات غضب، أم [. . .].

لم يكن أي شيء من هذا، كما فكرتُ في البداية. كانت ركلات اندفاعية، لكن سرعان ما غيّرت رأيي؛ فأصبحت أفكر كما يلي: لم يكن الاندفاع في الركلات، بل في التأثر، أو في الشعور أو الإحساس الناتج عن الركل. وبرعب كبير اكتشفتُ أنها كانت ركلات مصالحة، وإنْ لم تكن كذلك تماماً.

إنّ الركلات التي كنت أوجِّهها إلى الباب يمكن مقارنتها بأي شيء؛ لكنني قمت بمقارنات تبيِّن معناها بما يكفي. كنت أبدو

مثل إنسان مضطر في قرارة نفسه لتقبيل فم جمجمة.

حتى على سبيل التشبيه، فإنّ هذه المقارنة تعطي فكرة واضحة عن مدى تأثير الباب في ذاتي.

إنّ اختلالي العقلي تحت تأثير هذه الجاذبية لا يقبل التحليل إلّا قليلاً. لقد قلتُ إنه لا يمكن تفسيره. سأخبركم الآن بالأسباب التي جعلت [. . .] غير قابل للتفسير. أولاً، في هذه المرحلة، كانت تختلط في ذهني الأسباب والنتائج بسهولة، فيستحيل أي تحليل. ثم اكتشفتُ أنه يستحيل تحديد أولاً إنْ كان الخوف الذي أحاول تحليله هو نتيجة انجذابي الشخصي، أو نتيجة التحليل؛ الذي من المفروض، بوصفه قدرة إنسانية منطقية، أن [. . .] معنى [. . .] وإنسانياً أكثر منطقاً، لا شيء فيه يدلّ على أيّ معنى أو له معنى غامض في أحسن الأحوال.

إنّ الخوف الذي كان يصاحب كلّ ذلك الانجذاب والرفض نحو ذلك الشيء كان غير محدّد ولا يقبل التحديد. أستنتج، إذن، أنّ موضوعه هو أيضاً - ربما كان - غير محدّد ولا يقبل التحديد. كل المخاوف الإنسانية تبدو غير محددة، لكن يمكن حصرها في مواضيع محددة بشكل كبير. هناك الخوف من المجهول، والخوف من الممكن. خوف المرء من غرفة مظلمة: هذا هو **تجسيد الخوف**، لكن بالنسبة لي، في علاقتي بالباب، لم يكن الأمر كذلك. أي خوف كان بالتأكيد من شيء مجهول، لكن خاصيته كانت تتمثل في أنه ينبعثُ عبر الباب مصحوباً بإحساسٍ يشبه بشكلٍ غريب الخوف من شخص ما. هذه هي أحسن طريقة لوصفه؛ سواء فهِمَها القارئ أم لم يفهمها، لا أستطيع أن أقدِّم له مساعدة أحسن من هاته.

سأتابع حكايتي. في وقت من الأوقات - كنت في سن الثانية والعشرين - هزُلْت لدرجة اضطرَّت معها أسرتي لنقلي بالقوة إلى بلد أجنبي [. . .]، فأفْلتُّ منهم، وأنا واهن مريض، ثم عدت إلى القصر لأوجه ركلة إلى الباب. [. . .] وجدوني في القصر، فأخذوني من جديد، ولم أستطع أن أفرّ هذه المرة، ولو أنني كنت أرتعش خوفاً وأنا أفكر أنني قد لا أقوم بواجبي تجاه الباب.

تعافيت شيئاً فشيئاً؛ أصبحت أفكاري حول الباب قليلة أو منعدمة. عاد أفراد أسرتي وتركوني مع بعض الأصدقاء الذين كنت أشعر بالراحة بينهم. مع هذه العائلة، عدت إلى وطني، وبقيتُ في بيتهم، الذي يبعد عن القصر بقدرِ ما يبعد بيتان إحداهما عن الآخر في هذا البلد. هنا، وأنا أنعم بالصحة والهدوء، وحبّ ابنة هذه العائلة الذي يمثل أكبر عزاء بالنسبة لي، قضيت الوقت أتنزه مع حبيبتي، أقرأ لها وأتدفأ بنور حضورها الإلهي والخفِيّ.

ذات ليلة جميلة، وبينما كنت أخاصرها وأتنزه برفقتها هناك في الخارج، تجرأتْ وطرحتْ عليّ سؤالاً كان دوماً غائباً عن كل أحاديثنا. سألتني عن سبب هزلي. عليَّ أن أشير هنا إلى أنه، رغم أن عائلتي طرحت هذه السؤال عدة مرات على أشخاص آخرين وقامت بكلّ ما في وسعها من وسائل، لم تقترب أبداً من الحقيقة. لم يكن من السهل - فكرتُ - أن نعرف بمجرد الملاحظة سبب انهيار قواي. إنّ طرح الأسئلة على الآخرين لم يؤدِّ سوى إلى مخادعة أقوى. لم يُسعفهم قط في أيّ شيء أن يسألوني شخصياً؛ لماذا، قد تتساءلون؟ لأنني لم أكُن أميط اللثام عن الحقيقة، رغم طبيعتي الصريحة. في الحقيقة، كنت أشعر بشيء من الخجل في

تقديم تفسير على درجة من الغرابة بحيث لا يملك أي حظ ليُصدَّق [. . .].

. . . .

ما إن طرحتْ هي عليّ هذا السؤال، حتى شعرتُ أنني أجن.

«إنه الباب»، أجبتها، وأنا أرتعش بشكل مؤسف، «إنه الباب، إنه الباب».

«لكن، أيّ باب»، سألتني باندهاش، «أين هو؟ أي نوع من الأبواب؟».

لكني شعرت بتحول في ذاتي؛ فشدني تذَكُّرُ الباب، وهو يمسكني بمخالبه الفظيعة. هذه الجاذبية هي التي أصابتني بالجنون.

عشاء جد متميز

«قل لي ماذا تأكل أقل لك من أنت»

قالها أحدهم.

1

خلال الدورة السنوية الخامسة عشرة للجمعية الذواقية في برلين وجّهَ الرئيس هيرْ بْروزيتْ لأعضائها تلك الدعوة المشهورة. كانت الدورة، طبعاً، عبارة عن وليمة. عند تناول العُقبة، ثار نقاش كبير حول التميز في فنّ الطبخ. كانت تلك الفترة سيئة بالنسبة إلى كل الفنون. كان التميُّز في انحطاط. وفي الطبخ أيضاً كان يسود انحطاط وضعف. كلّ منتوجات المطبخ التي كانت تسمى «جديدة» لم تكن سوى تنويعات على أطباق معروفة أصلاً. مرقٌ مختلف، طريقة في وضع التوابل وتطييب المأكولات تختلف قليلاً، هذا ما كان يميِّز آخر طبق عن السابق. لم تكن هناك جِدّة حقيقية. لم يكن سوى التجديد. تأسَّف الكلّ بالإجماع لكلّ هذه الأشياء أثناء الوليمة بصخب، ونبرات متنوعة، ودرجات مختلفة من الحدّة.

ومع أنّ النقاش كان يطبعه الحماس والقناعة، فقد كان يوجد

بيننا رجل، رغم أنه لم يكن الوحيد الذي ظلّ صامتاً، كان صمته بالتأكيد هو الذي يثير الانتباه، لأنه كان من المنتظر منه أكثر من غيره أن يتدخل. هذا الرجل هو هيرْ بْروزيتْ، الذي كان يرأس الجمعية ويرأس هذا اللقاء. كان هيرْ بْروزيتْ هو الوحيد الذي لم يبدِ اهتماماً بالنقاش؛ موقفه لم يكن ينمّ عن عدم انتباه، بل عن رغبة في لزوم الصمت فقط. وقد افتُقد تأثير صوته. كان مستغرقاً في التفكير؛ كان هيرْ بْروزيتْ صامتاً، كان جدياً، هو فِلْهيلْم بْروزيتْ، رئيس الجمعية الذواقية.

كان صمت هيرْ بْروزيتْ غريباً، بالنسبة إلى معظم الرجال. يبدو (إذا صحّ التشبيه) مثل العاصفة. الصمت لم يكُن يناسبه. والسكوت لم يكن من طبيعته. وكما هو حال العاصفة (حتى نحتفظ بالتشبيه)، فإنه إذا ما لزم الصمت مرة، فإنّ ذلك يكون استراحة وتمهيداً لانفجار أقوى من أيّ انفجار. هذا هو رأي الناس فيه.

كان الرئيس شخصاً متميزاً على عدة مستويات: إنسان مرح وحسن المعاشرة، لكن لديه دائماً حيوية غير معتادة، وتصرُّف صاخب يبدو أنه يكشف عن استعداد منافٍ للطبيعة بشكلٍ دائم. كان حسن معاشرته يبدو مرضياً؛ ذكاؤه ومزاحه، رغم أنهما يبدوان غير متكلفين بأيّ شكلٍ من الأشكال، يبدو أنهما ينبعان من قدرة روحية لم تكُن هي قدرة الذكاء. حبّه كان يبدو زائفاً، وقلقه مصطنعاً بشكلٍ طبيعي.

رفقة الأصدقاء - وكانوا كثراً - كان يحافظ على جوٍّ من التسلية، فكان كله مرح وابتسامة، لكن، تجدر الإشارة إلى أنّ هذا الرجل الغريب لم تكن معالم وجهه المُعتادة تكشف عن أيّ تعبير للتسلية أو المرح. عندما يكفّ عن الضحك، أو عندما ينسى أن

يبتسم، نظراً إلى التناقض الظاهر على وجهه، يبدو وكأنه يقع في جدية غير طبيعية، في شيء يشبه الألم.

إذا كان هذا يعود إلى شقاء جوهري في طبعه، أو إلى محنة في حياته السابقة، أو أيّ مرض روحي آخر، فإنني، أنا الذي أحكي هذا، لا أستطيع أن أقول ذلك. ثم إنّ هذا التناقض في طبعه، أو، على الأقل، تمظهراته، لم يكن يتنبّه إليها سوى الملاحظ المنتبه؛ أما الآخرون فلا يرونها، ولم تكن لهم حاجة إلى ذلك.

وكما أنه في ليلة من العواصف، التي تمرّ الواحدة تلوَ الأخرى مع فترات هدوء فاصلة، يقول شاهد إنّ الليلة كانت بكاملها عاصفة، ناسياً فترات الهدوء الفاصلة بين فترات العنف وواصفاً الليلة بالميزة التي أثرت فيه أكثر من غيرها، كذلك، وبالشكل نفسه، وفقاً لطبيعة إنسانية، كان يُقال إن بْروزيتْ كان إنساناً مرحاً، لأنّ ما يثير الانتباه أكثر عنده هو الضجيج الذي يُحدثه عندما يُظهر بَشاشته، وصخب مرحه. في العاصفة، ينسى الشاهد الصمت العميق لفترات الهدوء. عند هذا الرجل، كنا ننسى بسهولة، أمام ابتسامته المتوحشة، الصمت الحزين، والثقل الصَّموت لفترات طبيعته الاجتماعية.

كان لوجه الرئيس، أكرّر، ذلك التناقض ويشي به. كان ذلك الوجه الضاحك يفتقد إلى الخيال. ابتسامته الدائمة كانت تبدو كأنها التكشيرة الخشنة لأولئك الذين تسطع الشمس في وجوههم؛ عندهم تنكمش العضلات طبيعياً تحت تأثير الضوء القوي؛ أما عنده هو فذلك تعبير دائم، غير طبيعي وفظّ إلى أقصى حدّ.

كان يُقال (بين مَن كانوا يعرفون طبيعته) إنه اختار تلك الحياة النشيطة ليفلت من مرض يتعلق بالأعصاب، أو، على أكثر تقدير،

من حالة مرضية عائلية، لأنه كان ابناً لشخص مُصاب بالصرع وكان من بين أسلافه، كي لا نذكر عدّة فاسقين غريبي الأطوار، عددٌ من العُصابيين المؤكدين. ربما كان بدوره مريضاً بالأعصاب. لكنني غير واثق من هذا الأمر.

ما أستطيع أن أقدِّمه كحقيقة لا تقبل الشك هو أنّ مَن أتى بْروزيتْ إلى الجمعية ضابط شاب، صديق لي وشخص مسلٍّ، تعرَّف عليه ووجد أنّ بعض مزاحه كان ظريفاً جداً.

هذه الجمعية - التي كان يتحرك فيها بْروزيتْ - كانت، في الواقع، من تلك الجمعيات المشبوهة والهامشية، التي ليست بالقليلة، المكوّنة من عناصر تنتمي إلى الطبقات العليا والسفلى في تركيب غريب يشبه تحولاً كيميائياً، لأنها غالباً ما كانت تتَّخذ طابعاً جديداً، خاصاً، يختلف عن طابع عناصرها. كانت جمعية تتجلى **فنونها** - يجب أن تسمى **فنوناً** - في الأكل، والشراب، وممارسة الحب. كانت **فنية**، من دون شك. وفظة، من غير أدنى شك. وتجمع بين هذه الأمور من غير تنافر.

من بين هذه المجموعة من الأشخاص، غير النافعين اجتماعياً، ولا ذوي جدوى إنسانياً، كان بْروزيتْ هو الرئيس لأنه كان أكثرهم فظاظة. من البديهي أنني لا أستطيع أن أغوص في السيكولوجية البسيطة، لكن المعقدة لهذه الحالة. لا أستطيع أن أشرح هنا السبب الذي أدّى إلى اختيار رئيس الجمعية من الطبقة السفلى. على امتداد العديد من النصوص الأدبية تمّ استنفاد ذكاء كبير، وكثير من الحدس، في حالات مثل هذه. من الواضح أنها حالات مرضية. ظناً من «بُّو» أنها تُختزل في حالة واحدة، أطلق على الأحاسيس

المعقدة التي تدفع إليها اسم **الانحراف** كتسمية عامة. لكني أسرد هذه الحالة وليس غيرها من الحالات. كان العنصر النسوي في الجمعية ينحدر من الطبقة السفلى، بتعبير متعارف عليه؛ والعنصر الذكوري، من الطبقة العليا. ركيزة هذا الخليط، وهمزة وصل هذا المزيج - أو بتعبير أحسن، العنصر الحفّاز لهذا التحول الكيميائي - كان هو صديقي بْروزيتْ. مراكز، وأماكن اجتماعات الجمعية كانتا اثنين: أحد المطاعم أو الفندق المحترم «س»، حسب ما إذا كان الحفل سكراً وعربدة تخلو من الأفكار، أو دورة عفيفة، ذكورية، وفنية للجمعية الذواقية في برلين. أما بخصوص الحفل الأول، فمن المستحيل محاولة وصفه؛ بل يستحيل القيام بتلميح لا يدنو من الفحش، لأن بْروزيتْ لم يكن فظاً بشكل عادي، بل بشكل غير عادي؛ كان تأثيره يُذِلّ أكثر رغبات أصدقائه انحطاطاً. أمّا الجمعية الذواقية، فكانت أحسن من ذلك، كانت تمثِّل الجانب الروحي للتطلعات الواقعية لتلك المجموعة.

قلتُ قبل قليل إنّ بْروزيتْ كان فظاً. وهذه حقيقة: كان فظاً. إفراطه كان فظاً، وبشاشته كانت تتجلى بشكلٍ فظّ. إنني أخبر بذلك بكلّ عناية. أنا لا أكتب مديحاً ولا افتراء. إنني أقوم بوصف شخصية بكلّ ما أستطيع من دقّة. وحسب ما تسمح به رؤيتي الفكرية، أقتفي آثار الحقيقة.

لكن بْروزيتْ كان فظاً، لا شك في ذلك، بل حتى في الجمعية، التي كان مضطراً أن يحتك فيها بعناصر راقية اجتماعياً، لم يكن يفتقد كثيراً خشونته الفطرية. كان يستسلم لها من دون وعي. لم يكن مزاحه غير مؤذٍ أو لطيفاً دائماً؛ بل كان كله فظاً تقريباً، رغم أنّ

تلك الاستعراضات - بالنسبة إلى مَن كانوا يستطيعون تقدير جوهرها - لم تكن تخلو من التسلية، والألمعية، والخيال.

أحسن تجلٍّ لقلة الأدب هاته كان هو اندفاعه وحماسه. ذلك أنّ الرئيس كان يبذل قصارى جهده بحماس في كلّ الأشياء التي يقوم بها، وخاصة في أمور المطبخ والعلاقات الغرامية؛ ففي الأولى كان شاعر المذاق، بخيال يزداد يوماً عن يوم؛ وفي الثانية، كان طبعه المنحط يتجلى دائماً في أفظع صوره. ومع ذلك، لم يكن حماسه واندفاعه موضع شكّ. كان يُقنع الآخرين بقوة طاقته، ويبثّ فيهم الحماس، ويقوّي حماسهم دون وعي بما يفعل، لكن حماسه كان له هو، لنفسه، كان حاجة عضوية؛ لم يكن الهدف منه ربط علاقة مع العالم الخارجي. صحيح أنّ ذلك الحماس لم يكُن يُطاق لوقت طويل؛ لكن، أثناء استمراره، كان تأثيره نموذجياً، وقوياً، ولو عن غير وعي.

لكن، تجدُر الإشارة إلى أنّ الرئيس، رغم أنه كان متحمساً، ومندفعاً، وفظاً، وخشناً، فقد كان، في الواقع، إنساناً لا يغضب أبداً. أبداً. لم يكن أيّ أحد يستطيع أن يُغضبه. ثم إنه كان دائماً على استعداد ليرضي الآخرين، ومستعداً ليتفادى الجدل. كان يبدو أنه دائماً يرغب في أن يكون الجميع على علاقة حسنة به. كان أمراً عجيباً ملاحظة كيف كان يقمع غضبه، كيف كان يسيطر عليه بعزم لم يكن أحد يظنّ أنه يملكه، خصوصاً مَن يعرفه متحمساً ومندفعاً، وخاصة أقرب أصدقائه.

أظنّ أنه لهذا كله كان بْروزيتْ يحظى بالتقدير. وبالفعل، ربما لأننا كنّا نأخذ بعين الاعتبار أنه كان فظاً، وخشناً، ومندفعاً، لكنه لم

يكن يتصرف أبداً بخشونة سببها الغضب أو العدوانية، ولم يكن مندفعاً بسبب الغيظ، باعتبارنا لكلّ هذا عن غير وعي، كنا نبني صداقتنا معه على هذا الأساس. ثم إنه كان دائماً مستعداً لِيُرضي الآخرين ويكون لطيفاً معهم. أما بخصوص فظاظته، فتلك مسألة لم تكُن ذات أهمية بين الرجال، لأنّ الرئيس كان رفيقاً جيداً.

من الواضح، إذن، أنّ جاذبية بْروزيتْ (على سبيل القول) كانت تكمن في هذا الأمر: لم يكُن سريع التأثُّر بالغضب، كان يرغب في إرضاء الآخرين بصدق، كان هناك سحر خاص في إفراطه الفظ، بل، ربما أيضاً، في الحدس غير الواعي لِللُّغْز الخفيف الذي كان يشكِّله هو نفسه.

كفى! إنّ تحليلي لشخصية بْروزيتْ، المفرط ربما في التفاصيل، يبقى ناقصاً؛ لأنني أظنّ أنه فقير أو لم يُبرز العناصر التي تسمح بتركيب نهائي. لقد غامرت في مجالات تفوق قدرتي، التي لا ترقى لوضوح طموحي. لذا لن أضيف شيئاً آخر.

ومع ذلك، هناك شيء يبرز من كلّ ما قلتُ: الجانب الخارجي لشخصية الرئيس. من الواضح أنه، مهما كانت المقاصد التي يمكن تصورها، فقد كان هيرْ بْروزيتْ إنساناً بشوشاً، وشخصاً غريباً، وإنساناً مرحاً بعادته، يدهش الآخرين بمرحه، ورجلاً بارزاً في جمعيته، وله عدّة أصدقاء. بما أنّ ميولاته الفظّة كانت تنظِّم عادات الجمعية التي كان يعيش فيها، أي بما أنها كانت تخلق أجواء، فإنها كانت تختفي لأنها كانت مفرطة في البداهة، وتنتقل تدريجياً إلى مجال اللاوعي. لم يكن يلاحظها أحد، فينتهي بها الأمر إلى أن تصير غير محسوسة.

كان العشاء يُشرف على نهايته. والحديث يزداد، بتزايد عدد المتحدثين، وتزايد الأصوات المتآلفة، والمختلطة، والمتنافرة. ظلّ بْروزيتْ صامتاً. كان الخطيب الرئيس، القائد «غْريوْ»، يلقي خطاباً بطريقة غنائية. يشدِّد على انعدام الخيال (هكذا يسميه) العقيم في الأطباق الحديثة. التهب حماسه. في فن الطبخ، لاحظ، كان دائماً من الضروري خلق أطباق جديدة. كانت نظرته ضيقة، ومحصورة في الفن الذي يعرفه. قدَّم حججاً خاطئة، وأراد أن يبيِّن أنّ قيمة التجديد لا تهيمن إلّا في الطبخ. وهذا يمكن أن يكون طريقة ذكية للقول إنّ الطبخ هو العلم الوحيد والفن الفريد. «إنه فن مبارك!»، صاحَ القائد «كان طبعه المحافظ ثورة دائمة!» «يمكنني أن أقول عنه»، أردف، «ما يقوله شوبنهاور عن العالم الذي يصمد بواسطة تهدمه الذاتي».

- وأنت، يا بْروزيتْ - قال عضو كان يجلس في أقصى الطاولة، عندما لاحظ صمت بْروزيتْ - أنت، يا بْروزيتْ، لم تُدلِ برأيك بعد! قل شيئاً، يا رجل! هل أنت شارد؟ هل أنت مكتئب؟ هل أنت مريض؟

نظر الجميع إلى الرئيس. ابتسم له الرئيس بطريقته المعتادة، والخبيثة، والغامضة، التي تكاد تخلو من الدعابة، لكن هذه الابتسامة كان لها معنى: بطريقة ما، كانت تُنذر بغرابة كلمات الرئيس.

كسر الرئيس الصمت الذي كان يخيم في انتظار الجواب المرتقب.

- لدي اقتراح، دعوة، - قال - هلا أعرْتُموني انتباهكم؟ هل يمكن أن أتكلم؟

عندما قال هذا، بدا أنّ الصمت قد أصبح أكثر عمقاً. التفتت كل العيون إليه. توقفت كلّ الأفعال والحركات حيث كانت، لأنّ الانتباه امتدّ إلى الجميع.

- أيها السادة - بدأ هيرْ بْروزيتْ - سأدعوكم إلى حفل عشاء. أؤكِّد أنه لم يسبق لكم أن ذهبتم إلى عشاء مثله. ودعوتي هي في الوقت نفسه تحدٍّ. سأشرح هذا فيما بعد.

ساد صمت قصير. لم يتحرك أحد، إلا بْروزيتْ، الذي شرب كأسه حتى الثمالة.

- أيها السادة - كرر الرئيس، بطريقة فصيحة ومباشرة -، إنّ التحدي الذي أوجِّهه لكل واحد منكم هو أنني في غضون عشرة أيام سأقيم عشاء من نوع جديد، **عشاء جدّ متميز**. اعتبروا أنفسكم مدعوين.

تعالت همهمات تطلب تفسيراً، وتقاطرت أسئلة من كلّ الجهات. لماذا هذا النوع من الدعوات؟ ماذا كان يقصد؟ ما هو مقترحه؟ لماذا هذا الغموض في التعبير؟ وبكلّ صراحة، ما هو التحدي الذي وضعه؟

- في بيتي - قال بْروزيتْ -، عند ساحة المدينة.

- جيد.

- هل ستنقل إلى بيتك مكان اجتماع الجمعية؟ - سأل أحد الأعضاء.

- لا؛ فقط بهذه المناسبة.

- وهل سيكون ذلك متميزاً جداً، يا بْروزيتْ؟ - سأل أحد الأعضاء الفضوليين بإصرار.

- جد متميز. جِدّةٌ مطلقة.

- بْرافو!

- إنّ تميز العشاء - قال الرئيس كمَن يتحدث بعد تفكير - لا يكمن في ما له أو ما يبدو عليه، بل في معناه ومحتواه. أتحدى أيّ رجل من الحاضرين (وفي هذه الحالة، يمكن أن أقول أي رجل في أي مكان) أن يقول، بعد نهاية العشاء، أين يكمن تميُّزه. أؤكد لكم أنْ لا أحد سيتكهن بذلك. هذا هو التحدي الذي أضعه أمامكم. ربما فكرتم أنّ التحدي هو أن لا أحد منكم يستطيع أن يقيم وليمة أكثر تميزاً، لكن الأمر ليس كذلك، إنّ التحدي هو ما قلته لكم. كما ترون، إنه أكثر تميزاً، أكثر تميزاً بكثير. إنه أكثر تميزاً ممّا قد تتوقعون.

- هل يمكن أن نعرف سبب هذه الدعوة، سأله أحد الأعضاء.

- لقد كنت مضطراً لذلك - وضح بْروزيتْ، وفي نظرته الحازمة تعبير متهكِّم - بسبب نقاش حصل قبل العشاء. ربما سمع بعض أصدقائي الحاضرين هنا ذلك الجدال. يمكنهم أن يخبروا مَن أراد بما حصل. دعوتي موجهة إليكم. هل تقبلونها؟

- طبعاً! طبعاً! - كانت هي الصيحة التي تعالت من كلّ جهات المائدة.

حرك الرئيس رأسه، وابتسم؛ ومستغرقاً في التسلية التي كانت تمنحه رؤية داخلية، انغمس في الصمت من جديد.

بعد أن انتهى هيرْ بْروزيتْ من وضع تحديه المدهش وتقديم دعوته، انصبَّت النقاشات التي دخل فيها الأعضاء على انفراد حول سببها الحقيقي. ظنّ بعضهم أنّ الأمر يتعلق بنوع آخر من مزاح

الرئيس؛ وظنّ آخرون أن بْروزيتْ كان يرغب مرة أخرى في تأكيد مهارته في الطبخ، وهو ما كان، منطقياً، أمراً لا مبرر له، رغم أنه يُرضي اعتداد أي إنسان بفنّه، ما دام أن (هذا ما كانوا يقولونه) أي أحد لم يجادله في ذلك. أما آخرون فكانوا على يقين أن الدعوة قد وُجهت في الواقع بسبب بعض الشبان من مدينة فرانكفورت كان بينهم وبين الرئيس منافسة حول أمور فن الطبخ. وسرعان ما تأكد، كما سيرى من سيقرأون هذا، أن الهدف من التحدي كان في الواقع هو الثالث؛ أي، الهدف المباشر، ذلك أن الرئيس، بما أنه كان إنساناً جدّ متميز، فإنّ وليمته كانت لها مميزات سيكولوجية من النوايا الثلاث التي نُسبت إليه.

الذي جعل الناس لا يصدقون مباشرة أن السبب الحقيقي للدعوة هو النقاش (كما قال هو بنفسه)، هو أن التحدي كان نوعاً ما مُبهَماً، ومغرِقاً في الغموض كي يظهر كانتقام ليس إلا. وفي الأخير، مع ذلك، كان عليهم تصديق كل شيء.

النقاش الذي أشار إليه الرئيس (قال ذلك مَن يعلمون بالأمر) حصل بينه وبين خمسة شبان من مدينة فرانكفورت. هؤلاء لم تكن لهم من خاصية سوى أنهم كانوا ذوّاقين؛ ذلك، أظنّ، هو السبب الوحيد الذي برَّر اهتمامنا. كان النقاش طويلاً. حسب ما أذكر، ألحّ الشبّان على أنّ طبقاً من ابتكار أحدهم، أو عشاء أقامه، يفوق عملاً ذواقياً من إنجاز الرئيس. حول هذا الأمر نشأ الجدال؛ وحول هذه النقطة نسج عنكبوت الخلاف خيوطه بسرعة.

كان النقاش مشتعلاً من طرف الشبان؛ هادئاً ومعتدلاً من طرف بْروزيتْ. عادته، كما قلتُ، أنْ لا ينساق مع الغضب. لكنه، في

هذه المناسبة، كاد أن يغضب نظراً إلى حماس أجوبة منافسيه. لكنه ظلّ هادئاً. ساد الظنّ، الآن بعد أن أصبح الأمر معروفاً، أنّ الرئيس سيسخر أيّما سخرية من الشبان الخمسة، وأنه سينتقم، حسب عادته، من ذلك الشجار العنيف. لذا، سرعان ما صار الترقُّب كبيراً؛ وبدأت تروّج شائعات حول حيلة غريبة، وحكايات انتقام جدّ متميز. أمام هذه الحالة ونوعية الرجل، كان لهذه الشائعات ما يبرِّرها، ويجعلها تستند بتهوّر إلى الواقع. وصلتْ كلها، آجلاً أو عاجلاً، إلى علم بْروزيتْ؛ لكنه، عند سماعها، كان يهزّ رأسه، ورغم أنه يوافق على عدالة النوايا، فقد كان يأسف على نبرتها الفظة. لن يتكهّن بذلك أحد، كان يقول. من المستحيل أن ينجح أحد في ذلك، ظلَّ يردِّد. كانت مفاجأة كبيرة. والتخمينات، والتكهنات، والفرضيات مضحكة وغير ذات جدوى.

برزت هذه الإشاعات، طبعاً، فيما بعد. ولنعُد إلى العشاء الذي وجّهت أثناءه الدعوة. كنا بعد أن انتهى العشاء متوجّهين إلى صالة التدخين عندما مررنا قرب الشبان الخمسة، أصحاب الشكل المهذب إلى حدٍّ ما، والذين قدّموا التحية لبْروزيتْ بنوع من البرودة.

- آه، يا أصدقائي - قال الرئيس ملتفتاً إلينا -، هؤلاء هم الشبان الخمسة من فرانكفورت الذين هزمتهم في مسابقة لفن الطبخ. . .

- إنك تعلم جيداً، يا سيدي، أنك لم تهزمنا - ردّ في جفاء واحدٌ من الشبان، مبتسماً.

- طيب، لنترك الأمور كما هي، أو كما كانت. بالفعل، يا أصدقائي، إن التحدي الذي وضعته على جمعية الذواقين - وتوجّه إلينا بإشارة واسعة - له أهمية أكبر وهو من طبيعة فنية أرقى.

شرح الأمر للشبان الخمسة. استمعوا إليه بقدر ما استطاعوا من الفظاظة.

- عندما وضعت هذا التحدي، الآن بالضبط، كنت أفكر فيكم.

- آه، هل هذا صحيح؟ وما علاقتنا بهذا؟

- آه! سترون ذلك قريباً! العشاء سيكون في غضون أسبوعين، يوم السادس عشر.

- لا نريد أن نعرف التاريخ. لا حاجة لنا به.

- لا، إنكم على حق! - ضحك مقهقهاً -. لا حاجة لكم به. ليس ضرورياً، لكن - أردف قائلاً - ستكونون حاضرين في العشاء.

- ماذا؟ - صاح أحد الشبان. أما الآخرون، فمنهم من أظهر تكشيرة، ومنهم من سمَّر فيه نظراته.

ردّ الرئيس بتكشيرة.

- نعم، ستساهمون في العشاء بأكبر طريقة مادية.

على ملامح وجوههم، أبدى الشبان شكَّهم في الأمر وأظهروا عدم اكتراثهم بالموضوع.

- نعم، نعم! - قال الرئيس، بينما كانوا يبتعدون. عندما أقول شيئاً، أقوم به، وأنا أقول إنكم ستكونون حاضرين في العشاء، وأقول إنكم ستساهمون في أن يحظى بالتقدير.

قال ذلك بنبرة احتقار واضحة ومباشرة حتى إن الشبان غضبوا وأخذوا يهرولون وهم ينزلون السلالم.

التفت آخرهم.

- سنكون حاضرين بفكرنا، ربما - قال -، ونحن نفكر في فشلك.

- لا ، ستكونون حاضرين فعلاً. ستحضرون بأجسادكم، أؤكِّد لكم ذلك. لا تشغلوا بالكم. اتركوا الأمر بين يدي.

بعد ربع ساعة، عندما انتهى كل شيء، نزلتُ السلالم رفقة بْروزيتْ.

- هل تظن أنك ستجبرهم على أن يحضروا، يا بْروزيتْ؟

- طبعاً - قال - أنا واثق من ذلك.

خرجنا معاً - بْروزيتْ وأنا - ثم افترقنا عند باب الفندق.

2

وسرعان ما حلّ موعد الدعوة. كان العشاء في بيت بْروزيتْ عند الساعة السادسة والنصف مساء.

البيت - ذلك البيت الذي قال بْروزيتْ إنه يقع قرب الساحة - لم يكن بيته فعلاً، بل لصديق قديم لم يكن يسكن في برلين وكان يعيره إياه كلما احتاج إليه. كان دائماً رهن إشارته. لكنه، لم يكن يحتاجه إلّا نادراً. كانت بعض ولائم جمعية الذواقين قد أقيمت هناك إلى أن فرضت راحة الفندق نفسها؛ الراحة، والشكل، والموقع. كان بْروزيتْ معروفاً جداً في الفندق؛ وكانت الأطباق تُحضَّر حسب تعليماته. كانت قدرته على الإبداع تنعم بحرية كما في بيته، مع طباخين إمّا تابعين له أو لأحد أعضاء الجمعية، أو يجلبهم من أحد المطاعم؛ ولم تكن مهارته هي التي تتمتع بالامتداد نفسه في الفعل، بل إن تنفيذ أفكاره أيضاً كان أسرع، وأفضل؛ إذ كانت تُطبق بنجاعة أكبر ودقة أعلى.

أما البيت الذي كان يسكن فيه بْروزيتْ، فلم يكن أحد يعرفه،

ولم يكن ذلك يهم أحداً. بالنسبة إلى بعض الولائم، كانت تُقام في البيت الذي تحدّثت عنه، وبالنسبة إلى العلاقات الغرامية كانت له شقة صغيرة؛ وكان يملك نادياً - أو بالأحرى ناديين -، ويظهر كثيراً في الفندق.

كما قلت، لم يكن أحد يعرف بيت بْروزيتْ؛ أما أنه يملكه، بالإضافة إلى المكان المذكور، ويسكن فيه، فقد كان الجميع يعلم ذلك. أمّا عن مكان وجود البيت، فلم يكن لأحد أدنى فكرة عن ذلك. ولم نكن نعرف كذلك مع مَن يعيش. أياً كان أصدقاء مكان اختلائه، لم يقم بْروزيتْ بالإشارة إليهم قط، بل إنه لم يقل إن كانوا موجودين. هذا لم يكن سوى استنتاج لتخميننا البسيط والطبيعي حول الموضوع. ما كنا نعرفه فعلاً - مع أنني لا أذكر بواسطة مَن كان ذلك - هو أن بْروزيتْ كان يقيم سابقاً في المستعمرات، في أفريقيا أو الهند، أو مكان آخر، وأنه جمع هنالك ثروة كان يعيش منها. هكذا، رغم أن بعض الأشياء كانت معروفة، فالبقية لم يكن سوى وقت الفراغ قادراً على التحقق منها.

إنّ القارئ يعرف الآن ما يكفي عن حالة الأشياء ويعفي من ملاحظات أخرى، سواء حول الرئيس، أو حول البيت نفسه. لذا، أنتقل إلى مشهد المأدبة.

كانت القاعة التي وُضعت فيها مائدة الوليمة كبيرة وواسعة، رغم أنها ليست هائلة. لم تكن هناك أبواب على الجانبين، بل فقط بابان، يؤديان إلى عدّة صالات. في الأقصى، من الجهة المطلة على الشارع، كانت هناك نافذة عالية وواسعة، ورائعة، تبدو كأنها تتنفس هي أيضاً الهواء الذي كانت تسمح بدخوله. كانت تعادل ثلاث نوافذ

عادية من الحجم الكبير. وتنقسم إلى ثلاثة أجزاء حسب شكل الإطار. ورغم أن الصالة كانت كبيرة، فإن هذه النافذة كانت كافية؛ تقدم ما يكفي من الهواء والضوء؛ ولم يكن أي ركن محروماً من أكثر الأشياء طبيعة في الطبيعة.

وسط قاعة الأكل وضعت مائدة طويلة للوليمة؛ وفي أقصاها كان يجلس الرئيس، مديراً ظهره للنافذة. أما أنا، كاتب هذه السطور، فكنت أجلس إلى يمينه، لأنني كنت أقدَم عضو في الجمعية. أما التفاصيل الأخرى فلا أهمية لها. كنا اثنين وخمسين.

كانت الصالة مضاءة بشمعدانات وضعت فوق المائدة، ثلاثة في المجموع. ونظراً إلى ترتيب خاص لزينتها، كانت المصابيح مركّزة بشكل غير منتظم فوق المائدة، تاركة في الظلّ الفضاء الفاصل بينها وبين والجدران. كان مظهرها يذكّر بمظهر ترتيب المصابيح على طاولة البليار، لكن، بما أنّ هذا الأثر لم يكن كذلك تماماً، وبواسطة خدعة لم يكن الغرض منها واضحاً، فإنّ أقصى ما كان يولده في الذهن هو إحساس بالغرابة تجاه تلك المصابيح وصالة الأكل. لو كانت هناك موائد أخرى على الجوانب، لما كان الإحساس بشبه الظلمة بينها مزعجاً، لكن بما أنه كانت هناك مائدة واحدة، لم يكن ذلك ممكناً. أنا بنفسي لم أنتبه لذلك إلا فيما بعد، كما سيرى القارئ الذي سيرافقني. رغم أنني، مثل كل مَن كانوا حاضرين هناك، بحثتُ في كلّ مكان عن مظاهر غريبة، ولم أنتبه لهذا الأمر.

الطريقة التي وضعت بها المائدة، ورُتِّبت، وزينت، لا أذكرها من ناحية، ولا داعي لذكرها، من ناحية أخرى. إنّ الفرق الذي قد

يوجد بالمقارنة مع موائد أكل أخرى كان فرقاً في حدود العادي، وليس فرقاً يدخل في إطار التميُّز. وفي هذه الحالة سيكون الوصف عقيماً ولا فائدة منه.

بدأ أعضاء الجمعية الذواقية - اثنان وخمسون، كما قلتُ - يظهرون عند السادسة إلا ربعاً. أذكر أن ثلاثة لم يصلوا إلا دقيقة قبل ساعة العشاء. وواحد - الأخير - وصل عندما كنا نتأهب لنجلس إلى المائدة. في مثل هذه الأمور، في هذه المرحلة من الجمع، كما هو متعارف عليه بين الفنانين، تُركت كل الرسميات جانباً. لم يمتعض أحد من هذا الوصول المتأخر.

جلسنا إلى المائدة بحمى مكتومة من الترقب، والسؤال، والشك الذهني. سيكون، الكلّ كان يذكر ذلك، **عشاء جد متميز**. كان أمام كل واحد منا تحدٍّ؛ تحدي أن يكتشف أين يكمن تميُّز العشاء. تلك هي الصعوبة. هل كان التميز في شيء غير ظاهر، أم في شيء بديهي؟ هل كان في طبق، أم في مرق، أم في ترتيب خاص؟ هل كان في جزئية تافهة من جزئيات العشاء؟ أم أنه، في نهاية المطاف، كان في الطابع العام للوليمة؟

كما هو طبيعي، بما أننا كنا جميعاً في هذه الحالة النفسية، فإنّ كل الأشياء الممكنة، كل ما كان ممكناً بشكل غامض، وكل ما كان بعيد الاحتمال بتعقُّل، كان يتسبب في الشك، والتساؤل، والضلال. هل يكمن التميُّز في هذا الأمر؟ هل هذا هو جوهر اللعبة؟

لذا، كلنا نحن المدعوين، ما إن جلسنا إلى المائدة حتى بدأنا نفحص بتدقيق، وفضول، المزينات والأزهار التي كانت فوقها، ليس هذا فقط، بل أيضاً رسومات الأطباق، وترتيب السكاكين

والشوكات، والأكواب، وقنينات الخمر. العديد من المدعوين فحصوا الكراسي. والكثير منهم قاموا بجولة من غير اتجاه محدَّد حول المائدة والصالة. ألقى أحدهم نظرة تحت المائدة. وتحسَّس آخر بسرعة وعناية الجزء السفلي منها. ترك أحد أعضاء الجمعية فوطة لتسقط وانحنى ليأخذها، وهو ما قام به بصعوبة مثيرة للضحك؛ كان يريد أن يرى، هذا ما قاله لي فيما بعد، إن كانت توجد هناك باب أرضية، يمكن أن تبتلع في لحظة معينة من الوليمة، إما المائدة فقط، أو نحن والمائدة جميعاً.

لا أستطيع أن أذكر الآن بدقة ماذا كانت افتراضاتي وتخميناتي، لكن، أذكر بوضوح أنها كانت مثيرة للضحك بما يكفي، ومن نوع الافتراضات نفسها التي أشرت إليها عند الآخرين. توالت الواحدة تلو الأخرى في ذهني بالتداعي أفكار عجيبة وغريبة. كل شيء كان في الوقت نفسه إيحائياً وغير مقنع. وبالتأمل، كان كل شيء ينطوي على تميز (كأي شيء في أي مكان)، لكن لم يكن أي شيء يقدّم بجلاء، ووضوح، ومن دون شك، إشارة إلى كونه مفتاح المسألة، وكلمة السرّ المخبَّأة لِلُّغز.

لقد تحدى الرئيس أي واحد منا أن يكتشف تميُّز العشاء. أمام هذا التحدي، أمام القدرة على الهزل التي اشتهر بها بْروزيتْ لم يكن بإمكان أيّ أحد أن يقول إلى أي حدّ تصل الخدعة، هل كان التميز غير ذي أهمية عن قصد، هل كان مخبأ في تراكم مفرط، أم أن تميز العشاء يكمن في أنه ليس متميزاً، وهو ما كان ممكناً أيضاً؟ تلك هي الحالة النفسية التي كان عليها المدعوون جميعاً - ولا أبالغ في القول - عندما جلسوا لتناول **عشاء جد متميز**.

كان الكل منتبهاً لكل شيء.

أول شيء تمّ الانتباه إليه هو أنّ مَن كانوا مكلفين بخدمة المدعوين هم خمسة نُدُل من الزنوج. لم تكن وجوههم تُرى بشكل جيد، ليس فقط بسبب اللباس الغريب الذي كانوا يرتدونه (الذي يضم عمامة غريبة)، بل بسبب الترتيب الخاص للضوء أيضاً، كما هو الشأن في قاعات البليارد، لكن بطريقة مختلفة، الذي كان يسقط على المائدة تاركاً كل ما حولها في الظلام.

كان النُدُل الزنوج مدربين بشكل جيد؛ ربما ليس بأحسن طريقة، لكنهم كانوا مدربين جيداً. كانت تنمّ عن ذلك عدة أشياء، يُدركها أشخاص مثلنا على اتصال يومي ومهم بهؤلاء الأشخاص، نظراً إلى طبيعة فنِّنا. يبدو أنهم تلقوا تدريباً جيداً في الخارج، من أجل الخدمة في عشاء كان هو أول عشاء يقدمونه. كان ذلك هو الانطباع الذي تركته الخدمة في ذهني المتمرِّس؛ لكنني رفضته مؤقتاً، لأنني لم أجد فيه شيئاً غير عادي. لا نجد نُدُلاً في أي مكان. ربما، فكرت في تلك اللحظة، جلبهم بْروزيتْ معه من المكان الذي كان يقيم فيه في الخارج. إنّ عدم معرفتهم لم يكن سبباً للشك في ذلك، لأنه، كما قلتُ، حياة بْروزيتْ الخاصة، وأين يسكن، لم تكن في علمنا؛ كان يُبقي على ذلك في السر، لأسباب هو يعرفها ولم يكن من حقنا أن نفحصها أو نحكم عليها. كانت هذه هي أفكاري حول النُّدُل الخمسة من الزنوج، عندما رأيتهم.

لقد بدأ حفل العشاء. زادت حيرتي. إنّ الخصائص التي كانت تميزه، بالنظر إليها منطقياً، كانت تخلو من أي معنى قد نبحث عنه دون جدوى ونحاول تأويله بأية طريقة. الملاحظات التي قدمها أحد

المدعوين بسخرية، عند نهاية العشاء، كانت تعبِّر بشكل مناسب عن كلّ هذا.

- إن الشيء المتميز الوحيد الذي يستطيع انتباهي وفكري الحَذِرْ أن يراه هنا - قال عضو رسمي بنبرة تعمَّدت التفخيم - هو، أولاً، إنّ مَن يخدموننا مظلمون ويوجدون نوعاً ما في الظلام، رغم أن من يوجد في الظلام من دون شك هم نحن؛ ثانياً، إن كان هذا الأمر يدل على شيء فإنه لا يدل على أي شيء. إنني لا أجد في أي مكان أي شيء مثيراً للشك، إلا إذا كان ذلك الشيء هو السمك، بالمعنى المهذب للكلمة.

هذه الملاحظات التي قُدمت بروح خفيفة، تمّ استقبالها بالتأييد، رغم أن ظرافتها كانت أكثر من فقيرة، لكن الجميع لاحظ الأشياء نفسها. ومع ذلك لا أحد كان يظنّ - رغم أن الكثيرين لم تكن لديهم أفكار واضحة - أن سخرية بْروزيتْ تكمن في ذلك الأمر وليس أكثر من ذلك. نظروا إلى الرئيس ليروا إن كان وجهه المبتسم يشي بأيّ إحساس، بإشارة لأيّ إحساس، أي شيء؛ لكن الابتسامة ظلت معهودة وغير معبِّرة. ربما صارت فضفاضة بعض الشيء، ربما كانت تتضمَّن تلميحاً عندما قدم العضو الرسمي تلك الملاحظات، ربما أصبحت أكثر مكراً؛ لكن هذا ليس مؤكداً.

- في كلماتك - قال بْروزيتْ أخيراً لعضو الجمعية الذي تحدث - ما يروقني أن أجده هو اعتراف غير واعٍ بمهارتي في الإخفاء، في جعل شيء يبدو مختلفاً عمّا هو عليه. أرى أنّ المظاهر قد خدعتك. أجد أنك بعيد كلّ البعد عن معرفة الحقيقة، وكشف المزاح. إنك بعيد عن التكهن بما يتميز به العشاء. ويمكنني أن أضيف أنه إن كان

هناك شيء مثير للشك، وهو ما لا أنفيه، فليس هو السمك، بالطبع. لكن، مع ذلك، أشكرك على إطرائك. ثم قام الرئيس بتحية ساخرة.

- إطرائي؟

- نعم إطراؤك، لأنك لم تتكهن بأي شيء. وبما أنك لم تفعل، فإنك تعلن عن مهارتي. أشكرك على ذلك!

وضعت الابتسامة حداً لهذا المشهد.

أثناء ذلك، توصلت فجأة، أنا الذي ظللت أفكر طول الوقت، إلى استنتاج غريب. بينما كنت أفكر في أسباب العشاء، وأنا أتذكر كلمات الدعوة ويوم توجيهها، تذكرت فجأة أنّ الجميع كان يعتبر العشاء نتيجة نقاش بين الرئيس وخمسة من الذواقين من فرانكفورت. تذكرت العبارات التي استعملها بْروزيتْ في تلك المناسبة. لقد قال للشبان الخمسة إنهم سيكونون حاضرين في العشاء، وإنهم سيساهمون فيه «مادياً». هذه هي الكلمة التي استعملها بالضبط.

لكن هؤلاء الشبان الخمسة لم يكونوا بين المدعوين. . . في تلك اللحظة جعلتني رؤية النُّدُل الخمسة أتذكرهم في الحال لأنهم كانوا خمسة. أرعبني الاكتشاف. نظرت إلى مكان تواجدهم لأرى إنْ كانت نظراتهم تَشي بشيء ما، لكن الوجوه المظلمة كانت بدورها في الظلام وفي تلك اللحظة لاحظت المهارة العالية التي كانت تجعل ترتيب المصابيح يسلّط كل الضوء على المائدة، تاركاً بقية الصالة، مقارنة مع الأجزاء الأخرى، في الظلام، وخاصة عند الأعلى، انطلاقاً من الأرضية، حيث كانت رؤوس النُّدُل الخمسة المكلفين بالخدمة. ورغم أنّ هذا الأمر كان غريباً ومحيِّراً، فلم يعُد لديّ شك. كنت واثقاً من أنّ الشبان الخمسة من فرانكفورت قد تحولوا

بالمناسبة إلى النُّدل الزنوج الخمسة الذين كانوا يقدمون العشاء. إنّ الطابع غير القابل للتصديق للقصة بكاملها جعلني أتردّد لبعض الوقت، لكن استنتاجاتي كانت مستنبطة بشكل جيد وجد بديهية. لم يمكن ممكناً غير ما اكتشفته.

تذكّرت للتو أنه، قبل خمس دقائق، في المأدبة نفسها، بعد أن لفت النُّدل الزنوج الانتباه بالطبع، كان أحد أعضاء الجمعية، «هِيرْ كْليسْتْ»، عالم أنتروبولوجيا، قد سأل بْروزيتْ عن عرقهم (لأنه لم يستطع بأيّ شكل أن يرى وجوههم)، ومن أين جلبهم. لعلّ الانزعاج الذي أبداه الرئيس لم يكن واضحاً تماماً؛ لكني، مع ذلك، رأيته بجلاء، ووضوح، رغم أنّ انتباهي لم يكن له حافز الاكتشاف الذي قمت به بعد ذلك. لكني لاحظت ارتباك بْروزيتْ فبقيت حائراً. بعد ذلك بقليل - كما لاحظت عن غير وعي -، عندما قدم أحد النُّدل الصحن الكبير لبْروزيتْ، قال هذا الأخير شيئاً ما بصوت منخفض؛ ونتيجة ذلك تراجع النُّدل «الزنوج» الخمسة أكثر نحو الظلّ، مبالغين ربما في المسافة، في نظر مَن يعير اهتماماً للخدعة.

كان خوف الرئيس، بالتالي، طبيعياً تماماً. إنّ عالم أنتروبولجيا مثل «هِيرْ كْليسْتْ»، شخص متعوّد على الأعراق البشرية، وأنواعها، وملامح وجوهها، قد يكشف بسرعة، وبالضرورة، الخداع لو رأى وجوههم. إنّ القلق الشديد لبْروزيتْ أمام السؤال هو السبب وراء أمره للنُّدل أن يبقوا في الظلام. كيف تحاشى السؤال، هذا ما لا أذكره؛ أظنّ، مع ذلك، أنه قام بذلك قائلاً إن النُّدل ليسوا في ملكه ومؤكداً أنه يجهل لأيّ عرق ينتمون وكيف وصلوا إلى أوروبا، لكن، عندما قدم هذا الجواب، كان، كما لاحظت، غير مرتاح؛ من دون

شكّ خوفاً من أن يبدي «هير كليست» رغبة في فحص الزنوج للتأكُّد من عرقهم، لكن كان من البديهي أنه، لو لم ينفِ أنّ النُّدل في ملكه، لما كان بإمكانه أن يقول «هذا العرق» أو «ذلك العرق الآخر»، لأنه، ما دام غير مطَّلع على الأعراق البشرية وهو يعرف ذلك، كان من الممكن أن يجازف بأيّ نوع يمكن أن تكون أبسط مميزاته الأساسية، كالقامة مثلاً، في تناقض صريح مع قامة النُّدل الزنوج الخمسة. أذكر بغير وضوح أنه، بعد هذا الجواب، الذي أخفاه بحادث عارض، حول بْروزيتْ الانتباه إلى العشاء، أو الطبخ - أو إلى أي شيء آخر لا أذكره، غير النُّدل.

تَطْييب الأطباق بذوق رفيع، والجِدّة السطحية في تقديمها - أشياء مشروعة في الرئيس كفنان طباخ، بالإضافة إلى الهدف من العشاء - هذا ما كنت أعتبره أموراً تافهة وضعت عن قصد لتحوِّل الانتباه، لأنه كان واضحاً، في نظري، طابع حقارتها العبثي، وتفاهتها الواضحة، وإرادة مناهضتها للتقاليد. يمكن أن أضيف أن لا أحد اعتبرها مهمة بعد فحصها.

الحدث في حدّ ذاته، هذا صحيح، كان مفرطاً في الغرابة بشكلٍ لا يقبل الوصف؛ وهذا سبب آخر، قلت لنفسي، ليكشف عن تميُّز بْروزيتْ. وكان محيراً، فكرت، أنه يمكن أن يقع. كيف؟ كيف يمكن لخمسة شبان معادين تماماً للرئيس أن يكونوا مقتنعين، ومدربين، ومجبرين ليقوموا بدور النُّدل في عشاء، وهو أمر يشمئز منه كل الرجال المنحدرين من وسط اجتماعي معين؟ كان شيئاً يثير قلقاً فظيعاً، كجسم امراة لها ذيل سمكة. كان يثير في الفكر الإحساس بأنّ العالم كان رأساً على عقب.

أما كونهم زنوجاً فذلك أمر كان سهل التفسير. لم يكن بإمكان بْروزيتْ أن يقدّم الشبان الخمسة لأعضاء الجمعية بوجوههم الحقيقية. كان طبيعياً أن يستعمل المعرفة القليلة، التي كان يعلم أننا نملكها، عن كونه كان يقيم سابقاً في المستعمرات ليُخفي دعابة طابعهم الزنجي. السؤال المؤرق هو كيف قام بذلك؛ وهذا وحده بْروزيتْ كان يستطيع أن يكشف عنه. يمكنني أن أفهم - ومع ذلك، ليس بشكل جيد - أن رجلاً قد يقوم بدور النادل من أجل صديق على سبيل المزاح، وكخدمة كبيرة يقدِّمها له، لكن في هذه الحالة!

كلما زاد تفكيري، كانت هذه القضية تبدو لي أكثر غرابة، لكن، في الوقت نفسه، نظراً إلى كلّ القرائن التي كانت بين يدي، ونظراً إلى مزاج الرئيس، فإنّ الأمر الأكثر احتمالاً، والأقرب إلى الصحة هو أن يكمن المزاح فيهم. إنْ بإمكانه فعلاً أن يتحدانا لنكتشف تميّز المأدبة! إنّ التميز الذي اكتشفته لم يكن يكمن، هذا صحيح، في العشاء في حدِّ ذاته، بل في النُّدل، في شيء له علاقة بالعشاء. عندما وصلت إلى هذه النقطة من التخمين، تفاجأت لأنني لم أفكر في ذلك من قبل: بما أنّ الوليمة كانت بسبب الشبان الخمسة (كما نعرف الآن)، فإنه لم يكن من الممكن أن لا تُركز عليهم، انتقاماً منهم، وبالتركيز عليهم لم يكن، من الطبيعي، ممكناً أن تنصب على شيء أكثر ارتباطاً مباشرة بالعشاء مثل النُّدُل.

هذه الحجج، وهذه التخمينات، التي قدمتها في بعض الفقرات، مرت بذهني في دقائق قليلة. كنت مقتنعاً، ومرتبكاً، وراضياً. لقد أبعد الوضوح العقلاني للمسألة عن ذهني طبيعتها الغريبة. فحصتها بتبصُّر ودقة.

أشرف العشاء على نهايته، ولم يبقَ سوى تناول العُقبة.

قررت، حتى يتم الاعتراف بقدرتي، أن أحكي ما اكتشفته لبْروزيتْ. تأكدت من أنني لا يمكن أن أخطئ، وأن لا أكون بصدد ارتكاب خطأ؛ فغرابة المسألة، كما كنت أراها، كانت تُحوّلها إلى يقين. في النهاية، انحنيت نحو بْروزيتْ وقلت بصوت منخفض:

- بْروزيتْ، يا صديقي، لقد اكتشفت السر. هؤلاء الزنوج الخمسة وأولئك الشبان الخمسة من فرانكفورت...

- آه! تكهنتَ بوجود علاقة بينهم - قال بين الخوف والشك، لكني لاحظت أنه كان منزعجاً ومتوتراً بسبب فطنة تفكيري المنطقي، الذي لم يكن يتوقعه. بقي منزعجاً ونظر إليّ بانتباه. فكرت «إنني على حق».

- طبعاً - أجبته -، إنهم خمسة. ليس لي شك في ذلك، لكن، يا إلهي، كيف تمكّنت من ذلك؟

- بالقوة الوحشية، يا صديقي العزيز، لكن لا تقل شيئاً للآخرين.

- لا، طبعاً، لكن بالقوة الوحشية، كيف ذلك، يا عزيزي بْروزيتْ؟

- طيب، إنه سرّ. لا يمكنني أن أقوله. إنه سرّ كبير مثل الموت.

- لكن، كيف تستطيع أن تحافظ على هدوئهم؟ إنني مندهش. ألا يهربون ولا يتمردون؟

أصابت الرئيس رجة ضحكة داخلية.

- لا خوف من شيء كهذا - قال وهو يغمز بعينه، بطريقة أكثر من دالة. لا يستطيعون الهروب. لا يستطيعون. هذا مستحيل تماماً - ونظر إليّ في هدوء، ومكر، وغموض.

إلى أن وصل العشاء إلى نهايته - ليس كذلك، لم يكن ذلك عند نهاية العشاء، وهذا تَفرُّدٌ يتوخى ظاهرياً الهدف نفسه -، عندما اقترح بْروزيتْ القيام برفع نَخْب. ظلّ الجميع مندهشاً لهذا النخْب الذي رُفع بُعَيد آخر طبق وقبل العُقبة. اندهش الجميع، إلا أنا، لأنني كنت أرى في ذلك غرابة أخرى، لا معنى لها، لصرف الاهتمام. رغم ذلك، مُلئت كلّ الأكواب. بينما كانت تُملأ، تغيَّر بشكل كبير سلوك الرئيس. كان يتحرك في كرسيه بقلق كبير، بحماس رجل يريد أن يتكلم، كمن عليه أن يكشف عن سرٍّ عظيم، كمن يجب أن يقوم بإعلان كبير.

لوحظ هذا التصرف للتوّ.

- بْروزيتْ، هل لديه مزاح يريد أن يكشف عنه؛ مزاح. إنه بْروزيتْ الأصيل! هيا، يا بْروزيتْ!

وكلما كانت تقترب لحظة رفع النخْب، كان الرئيس يبدو كأنه يُجنّ من القلق؛ يتحرك في كرسيه، يتلوى، يقطب جبهته، يبتسم، يكشر، يضحك من غير سبب ولا توقف.

كانت كل الأكواب مملوءة. كان الكل مستعداً. ران صمتٌ عميق. في توتر تلك اللحظة، أذكر أنني سمعت خطوات شخصين في الشارع وأقلقني صوتان - صوت رجل، وصوت امرأة - كانا يتحدثان في الساحة، هناك في الأسفل.

ركزت لدرجة أنني لم أعُد أسمعهما. نهض بْروزيتْ؛ أو بالأحرى، قفز، وهو يكاد يسقط الكرسي.

- أيها السادة - قال - سأكشف عن السر، عن المزاح، عن التحدي الذي وضعته. إنه جد مسلٍّ. هل تعلمون أنني قلت للشبان الخمسة من فرانكفورت أنهم سيكونون حاضرين في هذه المأدبة، وأنهم سيساهمون فيها بأكبر طريقة مادية؟ هنا يكمن السر، في هذا الأمر بالضبط.

كان الرئيس يتحدث بعصبية، بدون انسجام، وبسرعة مَن يريد أن يصل إلى النقطة الأساسية.

- أيها السادة، هذا كل ما لديّ لأقوله. والآن لنرفع النخْب الأول، النخْب الكبير. إنه من أجل منافسيّ الخمسة المساكين... لأن لا أحد تكهّن بالحقيقة، بما في ذلك «مِيّيرْ» [الذي هو أنا]؛ بما في ذلك هو.

صمت الرئيس قليلاً؛ وبعد ذلك قال وهو يرفع صوته في صراخ:

- إنني أشرب - قال - في ذكرى الشبان الخمسة من فرانكفورت، الذين كانوا حاضرين بأجسامهم في هذا العشاء وساهموا فيه بأكبر طريقة مادية.

ثم، غائر العينين، ومتوحشاً، ومجنوناً تماماً، أشار بأصبع متوتر إلى بقايا اللحم التي كانت في الصحن الكبير الذي أمرَ بتركه فوق المائدة.

ما أن نطق بهذه الكلمات حتى نزل علينا جميعاً رعب لا

يوصف مصحوباً ببرد مريع. إلى حدّ الساعة ظلّ الجميع مسحوقاً بفعل ذلك الإعلان الذي لم يكن أحد ليفَكر فيه. في شدة الفظاعة، وصمتها، كان يبدو أن لا أحد سمع، وأن لا أحد فَهِمَ. كان الجنون الذي يفوق كلّ الأحلام فظيعاً في الواقع الفجّ. نزل على الجميع صمت دام للحظة بدت، نظراً إلى الإحساس، والمعنى، والفظاعة، كأنها دامت قروناً، صمتٌ لم يحلم به أحد ولم يفكر فيه قط. لا أتصور تعابير كلّ واحد، ولا تعابيرنا جميعاً، لكن تلك الوجوه ربما كان لها شكل لم يوجد في أي رؤية أخرى.

حدث هذا في لحظة قصيرة، ومستنزِفة، وعميقة.

ليس من الممكن وصف رعبي وتأثري. كلّ العبارات المسلية والمشاركات ذات القصد السيئ التي ربطتها، بشكل طبيعي وبريء، بنظريتي حول النُّدل الزنوج الخمسة، كانت تكشف الآن عن معناها العميق والفظيع. كلّ السر الخبيث، وكل وقاحة صوت بْروزيتْ؛ كل هذا الذي بدأ يبرز الآن على حقيقته، كان يرجّني ويهزني برعب لا يوصف، بل إن شدة الرعب الذي تملَّكني كانت تمنعني من الإغماء. للحظة، مثل الآخرين، لكن بخوف أقوى ولسبب أكبر، استندت إلى الكرسي ونظرت إلى بْروزيتْ برعب لا توجد كلمات للتعبير عنه.

كان ذلك لمدة لحظة، لا أكثر. بعد ذلك، باستثناء أكثر الأشخاص ضعفاً، الذين أغمي عليهم، ارتمى كلّ المدعوين، الهائجين في غضب مبرر لا يكبح، بضرواة على آكل لحوم البشر، على صاحب هذه الملحمة التي تفوق الفظاعة. ربما بدا ذلك بالنسبة إلى المتفرج العادي مشهداً مريعاً وهو يرى رجالاً مهذبين، وأنيقين، وفنانين تقريباً، بذوقهم المرهف، يحركهم غضب أسوأ من

غضب الحيوانات. كان بْروزيتْ مجنوناً، لكن في تلك اللحظة نحن أيضاً كنا مجانين. لم تكن له أية إمكانية ضدنا، بل أية إمكانية إطلاقاً. وفعلاً، كنا في تلك الحظة أكثر جنوناً منه، بل كان يكفي **واحدٌ** منا، لشدّة ما كنا نشعر به من الغضب، ليعاقب الرئيس بشكل فظيع.

وأنا شخصياً، قبل أي أحد آخر، وجهت لكمة للمجرم بغضب جدّ شديد لدرجة أنها كانت تبدو لكمة صادرة عن شخص آخر، وما زالت تبدو كذلك إلى الآن، فالذكرى التي أحفظها هي لمشهد رأيته بشكل غير مضبوط، لشيء يمكن أن لا يكون قد وقع فعلاً. أخذت قنينة النبيذ التي كانت بالقرب مني وألقيت بها على رأس بْروزيتْ، بغضب شديد. أصابته في وجهه تماماً، فاختلط الدم بالنبيذ. إنني وديع، ومرهف الحس، أكره الدم. عندما أفكر في ذلك الآن، لا يمكنني أن أفهم كيف استطعت أن أقوم بفعل كان بالنسبة لي، نظراً إلى طريقتي الخاصة في الحياة، رغم كونه مبرراً، يتميز بقساوة فظيعة، خصوصاً بسبب الغضب الذي كان من ورائه. كان فعلاً قاسياً، قاسياً جداً. كم كان غضبي وجنوني كبيرين في تلك اللحظة! كم كانا كبيرين غضب الآخرين وجنونهم!

- من النافذة! - صاح صوت مرعب - من النافذة! - صرخت جوقة رائعة.

وكانت ميزة الوحشية في تلك اللحظة أن فُتحت النافذة وكُسرت بالكامل. ضربها أحدهم بكتفه بقوة فهشَّم جزأها الأوسط (كانت النافذة تتكون من ثلاثة أجزاء) في الساحة، هناك في الأسفل.

ما يزيد عن دزينة من الأيادي الوحشية انهالت بشراهة وتنافس

على بْروزيتْ، الذي اهتز جنونه بخوف لا يوصف. وبحركة متوترة، ألقوا به في اتجاه النافذة، لكنه لم يخترقها، لأنه استطاع أن يتمسك بأحد أجزاء الإطار.

من جديد، أمسكته تلك الأيادي، بتوتر أقوى، وهمجية أعظم، ووحشية أفظع. وبقوة هرقلية، وانتظام، وتناسق شيطاني تام في مثل تلك اللحظة، جعلوا الرئيس يتأرجح في الهواء ورموه بعنف يفوق الوصف. وبضربة خاطفة، كان من الممكن أن تثير اضطراب أكثر الناس قوة لكنها أنزلت السكينة على قلوبنا الملهوفة والمترقبة، سقط الرئيس في الساحة، على بُعد متر ونصف من الرصيف.

بعد ذلك، لم يتبادل أحد كلمة أو إشارة؛ كان كل واحد منعزلاً في رعبه الذاتي، ثم خرجنا من ذلك البيت. بعد الخروج، وبعد مرور الغضب والرعب اللذين كانا يجعلان كل ذلك يبدو كأنه كابوس، شعرنا بالرعب الذي لا يوصف لوجودنا فجأة في المعتاد من جديد. شعر الجميع دون استثناء بالألم، وأغمي على الكثير. شخصياً، أغمي عليّ قرب الباب بالضبط.

النُّدل الزنوج الخمسة لبْروزيتْ - كانوا فعلاً زنوجاً، وقراصنة آسيويين ينتمون إلى قبيلة من السفاحين والممقوتين - الذين لاذوا بالفرار أثناء الصراع عندما أدركوا ما كان يجري، تمّ القبض عليهم جميعاً، باستثناء واحد منهم. يبدو أن بْروزيتْ، حتى يُتِمّ مزاحه، كان قد بدأ يحيي فيهم شيئاً فشيئاً، ببراعة شيطانية تامة، الغريزة الوحشية التي ترقد في الحضارة. تلقوا تعليمات بأنْ يظلوا أبعد ما يمكن من المائدة في أماكن مظلمة، نظراً إلى الخوف الجاهل والإجرامي الذي كان يشعر به بْروزيتْ تجاه «هير كليست»، عالم

الأنتروبولوجيا، الذي كان يعرف بْروزيثْ أنه يستطيع بواسطة علمه أن يرى في الوجوه السوداء العلامات الخبيثة لإجرامه. ونال الأربعة الذين ألقي عليهم القبض عقاباً مستحقاً وكما يجب.

ألكسندر سيرش

يونيو، 1907

السّالك

I

كنت أعيش سعيداً في بيت أبوَي، في مدينة مسقط رأسي على شاطئ البحر. لم يكن لديّ من المشاغل ما يلهي فكري عن الاضطرابات الطبيعية التي تميِّز الخيال السعيد للمراهقين؛ ولم يكن قد حلّ الحب، ببهجته الظمئة، ليعكِّر صفو حياتي. كنت أعيش سعيداً ومبتهجاً، من دون ذكريات الماضي، ولا أحزان الحاضر، ولا شكوك المستقبل. لقد مضت طفولتي آمنة وطبيعية. وكانت مراهقتي تمضي دون هزات.

إن غنى والديّ وطبعي الخاص، البعيد عن كل تبذير، قد بددا كلّ السحب عن مستقبلي.

مضت طفولتي دونما أمراض أو أحزان. وانتهت مراهقتي من غير حمى ولا أشياء غريبة. غنى والديّ، وطبعي الذي لا يكنّ للأمر أي عداء، لم يشكلا بالنسبة لي أيّ قلق ممّا قد يقع لو أن الموت أخذهما مني. أما الآن، فإنهما يحبانني ويريدانني بالقرب منهما. وكانت معاشرة هادئة لأصدقاء البيت تزيد من راحتنا. لقد تعلّمت أن أحترم الكبار، وأحبّ الصغار، وأقدِّر الأقران وأعامل بالمساواة كلّ

مَن هم أقل مني. لم يكن لديّ من المشاغل ما يلهي فكري عن الاضطرابات الطبيعية التي تميز الخيال السعيد للمراهقين؛ ولم يكن قد حلّ الحب، أو الحزن من فقده، ليعكر صفو حياتي. كنت أعيش سعيداً ومبتهجاً، من دون ذكريات الماضي، ولا أحزان الحاضر، ولا شكوك المستقبل.

اعتدتُ أن أقضي الظهيرة في القراءة أو التأمل، في غابة صنوبر صغيرة تقع في أقصى مزرعتنا في ضواحي المدينة. قضيتُ هناك أسعد لحظات حياتي. كان السور العالي يطلّ على طريق يسلكه المتوجهون إلى المدينة.

وعندما لا أتأمل أو لا أقرأ، كنت أسهو، وأنا أطلّ من السور، في النظر إلى العابرين المسرعين، والعربات التي تقترب ترافقها أصوات الجلاجل، والحمير البطيئة لمزارعي الضواحي، والخطى النبيلة للخيل القادمة من البيوت الأكثر ثروة، أو يقصدون تجارتهم في الأقاليم، بأمتعة مكدَّسة وأحزمة فوق أحصنة أقلّ جمالاً تتبعهم. كان فضول المتأمل يشدّني هناك لساعات، وأنا شارد، أرى الحياة تمرّ دون أن أمعن النظر فيها، وألهو، على طريقة الناس البسطاء، بمنظر الأشياء أكثر من النظر إلى معناها.

ليس لأن أفكاري كانت تمضي دائماً بكل تلك السذاجة، بل لم تكن تنحرف عن هدوئها المميز في تلك الأوقات.

وكما هو شأن كلّ مَن يفكرون، لم أكن أكفّ، بالطبع، عن التدبُّر في لغز الوجود، لكن ذلك كان يُقلقني ليلاً، في الصمت قرب المصباح، عندما تخلد العجائز للنوم، بعد نسيان العمل الذي يشغل وقتهن، وتنتشر بقعة الحياة الكبيرة في الروح. في تلك المناسبات،

كنت أتلقى استيقاظ العجائز للعشاء بفرح كبير، ثم تأتي الخادمات ليضعن المائدة ويَصِحْنَ بأصوات عالية، مرة أخرى، فأطرد، في نوع من الخمول والقلق، ذلك السحر الذي يسمِّم روحي لحظتها.

لكن كل هذا، وإن لم يكُن متعة خالصة، كان يجلب أمراً ضرورياً يحمل قلقاً نبيلاً لينفض بطريقة ما غبار الرتابة الذي، لولا ذلك، لغطى شيئاً فشيئاً حياتي. ولم يكن ذلك يحدث دائماً، ولا يحدث بشكل كبير. كانت «قيلولة» حياتي تتشكل ممّا له علاقة بمدّتها، وكذلك بما يرتبط بالعادة، في تلك المساءات العديدة التي كنت أقضيها وحيداً أشاهد من أعلى سور غابة الصنوبر مَن يذهب إلى المدينة ومَن يعود منها، بينما هناك بعيداً، وراء سور المزرعة المجاورة، كانت تمتد الحقول الخضراء التي تمتِّع الناظرين بشكل غامض.

ذات مساء، كنت، كعادتي، أراقب مرور العربات والراجلين. كانت نهاية يوم صيفي، بسُحب خفيفة تتراكم في الأفق، وريح خفيفة، ريح باردة، تحرك خلفي، في همس غافٍ، أشجار الصنوبر. ويلفّني عبق نباتي غضّ، ليزيد من العذوبة التي كانت تنتشر ساعتها في كلّ أركان الحياة.

وبما أنه لم تمرّ أي عربة منذ عدة دقائق، فقد سهوت حتى نسيت انشغالي الشارد. كنت أحدق إلى الطريق دون أن أراها، وأنا أفكر في أي شيء آخر، ما كان بإمكاني أن أعرف ما هو لو سألوني عنه لحظتها. فجأة، ارتجفتُ قليلاً، ولاحظت أنّ رجلاً يرتدي لباساً أسود بالكامل قد برز، دون أن يُسمع صوت خطواته، من منعرج الطريق جهة المدينة. لا أدري لماذا، ما إن وقعت عليه عيناي حتى

ظلّتا طويلاً تتفحصانه. لكني لا أستطيع أن أضيف شيئاً آخر سوى أنه كان رجلاً يرتدي لباساً أسود بالكامل، له صوت وقور وحزين، عينان هادئتان وغريبتان، وكان يمشي بخطى متثاقلة وخفيفة عبر الطريق.

عندما وصل إلى المكان الذي كنت فيه، رفع عينيه نحوي، وسألني عن شيء - لشدّة ما كنت أنظر لم أكن أسمعه - فأجبته بشيء لا أستطيع أن أذكره كذلك. أذكر فقط أنّ جوابي كان بالنفي، لكني لا أذكر ما نفيته. شكرني ومضى لحاله. عندما شكرني حدَّق بي دون أن يبتسم (أذكر ذلك) كما لو أنه، بدل أن يشكرني، كما العادة بابتسامة لا معنى لها، كان يقول لي أيّ شيء يهمني لسبب من الأسباب ولا يمكن أن يُقال إلا بذلك الوقار المهيب.

عندما تابع سيره وهو على وشك أن ينعطف عند منعرج الطريق، ودون أن تفارقه عيناي، شعرت فجأة أنه لسبب غامض كنت أتذكر ليالي السهر الطويلة، على ضوء المصباح، عندما كانت النساء يغفون فوق العمل المتقطع، فأشعر عادة بسحر الأشياء التي تأتي إليّ من العتمة، وتصعد بطيئة مثل مدّ صامت عبر الشاطئ في الجهة الأخرى من البحر.

II

لم أشعر بعد ذلك مرة أخرى بالطمأنينة ولا بالراحة. لقد أصبحت حياتي، منذ تلك الساعة، جوفاء وشاحبة. وصرت، بعد أن كنت أملك كل شيء، بحاجة إلى كل شيء. لم أكن أرغب في أي شيء، وأبتغي كل شيء. وإذا ما حاولتُ في الحلم أن أتخيل متعة

ترضيني، [ ][1] تريحني، لم أكن أستطيع. لم أكن أدري أنه يكفي أن أحلم بالشيء لأكون مسروراً. وأصبحت الأشياء البسيطة في حياتي، تلك التي لم تكن تثير انتباهي سابقاً، تزعجني، وتلك التي كنت أحبها لا تثير اهتمامي، أو غريبة عني، كأنها أزهار من دون رائحة ولا لون. لا أستطيع أن أقول إن كان بطيئاً أو سريعاً هذا التحوّل الذي جعلني شخصاً آخر.

كلّ ما أعرف أنّ هذا التحول بدأ عندما رأيت الرجل ذا اللباس الأسود يختفي وراء منعرج الطريق.

قَلّ، دون أن يفتر، حبي لوالديّ، كما فتر اهتمامي بأصدقائي، وبالبيت والراحة في العيش دون هموم ولا مخاوف. فأصبحتُ لا أهتم بأي شيء، ولا أستطيع أن أستمتع بالحياة، ولا أن أشعر بها ملكاً لي، بكل روحي.

لكن أكثر ما كان يقلقني ليس هو أن أجهل السبب الحقيقي لقلقي، بل طبيعته. لم يكن أي إحساس جرّبته، ولا أي شيء ممّا قرأته أو سمعت عنه، يشبه ذلك الأمر. لم يكن ألماً خالصاً، ولا مجرد اضطراب، ولا قلقاً لا تشوْبُه شائبة. لم تكن فيه حرارة الرغبة، لكنه كان رغبة؛ لم يكن يشبه ألم فقدان أي شيء، لكنه كان الألم ذاته؛ لم يكن يتعلق بأشخاص، أو بأشياء، ولا يتعلق بي أنا أيضاً، لو فكرت في الأمر جيداً. وبما أنه لم يكن بوسعي أن أقدّر ما هو، لم أكن أستطيع أن أتصوَّر ما يخلصني منه.

---

(1) هنا ترك الكاتب بياضاً في النص (محققتا النص، آنا ماريا فْريتاشْ وتيريسا ريتا لوبيشْ).

ودائماً، كلما رافقني هذا الألم (ولم يكن يفارقني) كان به، دون أن يكون جزءاً منه، كما لو أنه يوجد خارجه، كما لو كان بعيداً عني، ذلك الرجل ذو الملابس السوداء، والكلمات (أي كلمات؟) التي قالها، وعيناه ذواتا الشعر الشاحب والتعبير السامي، شبه الحزين، على محياه الغامض والهادئ.

وإذا ما حصل وفكرت ملياً، بعد ذلك، في هذا الوجه الغريب، لا أحصل على أي شيء، لا بشأنه، ولا بشأن ما تغيَّر، بل ولا بخصوص أفكاري حوله عندما أفَكر فيه. وأنا أحاول تذكر قسمات وجهه، وجدت أنني لم أحدق بها بأيّ شكل من الأشكال. كنت أدري أنني قد أتعرّفه للتو، لو رأيته مرة أخرى، لكن لم يكن بوسعي أن أجعله يظهر داخل فكري، كي أتعرّفه. لم أعُد أذكر شيئاً من مشيته، ولا من حركاته، ولا من نبرة صوته. وأنا أفكر بعمق، لا أذكر أنني سمعت صوته، ذلك الصوت الذي حدثني. كما لو أنني رأيت في الحلم شخصاً حدّثني ثم لم أرَ الحلم ثانية، لكن هذا فقط وليس الصوت، كأنه حلم كله صور لا يصاحبه أي شيء موجّه لمسامع الروح.

أتذكر أن لباسه كان أسود، لكني لا أذكر أي تفاصيل عنه. كلما فكرت في الرجل، ظهر بشكل أقل إلى ناظري.

أما كلماته، فلم يبقَ منها في فكري شيء. كنت أدري أنه كلّمني، لكني لا أعرف ما قاله لي ولا أستطيع أن أتصور ذلك. لكني لا أستطيع أيضاً أن أتصور أنه لم يقُل شيئاً، فما إن أنساق وراء تخيله حتى يبدو لي أنني أسمع صوته، دون أن أسمع الكلمات، الموجودة رغم ذلك، والتي تلح عليّ لأصدِّقها.

وأنا، ماذا كانت أفكاري عن ذلك الرجل؟ لم أكن أعرف شيئاً، وهذا أغرب ما في الأمر كله. هل كنت أحب ذلك الشخص، أكرهه، أخشاه؟ لم يكن يثير حبي، ولا كراهيتي، ولا خشيتي. كان يفعمني بإحساس قوي جداً، وهو ما لم يكن إحساساً. على الأقل، لم يكن إحساساً معروفاً، ولا مجموعة أحاسيس، مزيجاً غير منسجم منها. لم يكن يشبه أيّ إحساس. لم يكن أكثر غموضاً، ولا أكثر برودة، ولا أكثر غرابة من الأحاسيس الأخرى؛ لم يكن بعيداً عنها فحسب، بل لا يمتّ إليها بِصِلة. كنت أشعر به، أشعر به دائماً، لكنه كان يبدو، رغم ذلك، خارج روحي، لا أشعر به في دواخلي.

انطلاقاً من هذا الوصف، الذي لا يصف شيئاً، لكنه حقيقة ما كنت أشعر به، يمكن تصور ما آلت إليه حياتي منذ أن رأيتُ الرجل ذا اللباس الأسود.

لا أدري كم قضيتُ من الوقت على هذا الحال، في هذا القلق الذي لا ينقطع، في تلك الحمى من دون حرارة ولا ألم. أعرف أنه كان وقتاً طويلاً.

بدأ الناس يستغربون لأمري، ويظنون أنني أبالغ في نزوعي الطبيعي إلى العزلة. وفي لا شعوري تقريباً، شعرتُ من حولي بفتور حبّ والديّ، وصداقة أصدقائي، والمودة المعهودة للخادمات العجائز. لكني، أظنّ أنّ كل هذا فتر بسبب ما حصل في داخلي من فتور، وكان انعكاساً شبه غريزي، حصل بشكل مادي نتيجة ابتعادي عن كلّ شيء.

فلم تعُد تستهويني اليوم غير العزلة التي كانت تغريني سابقاً أكثر من الأشياء الأخرى. وشيئاً فشيئاً، أصبح حضور الآخرين

ووجودهم إلى جانبي، مزعجاً، ثم صار مقلقاً لا يُطاق. بيْدَ أنني لم أكن قلقاً بطبعي، ولا مضطراً لأضبط على الدوام قلقي، لكن هذا التغيير كان دقيقاً في فكري لدرجة أن الآخرين تكيَّفوا غريزياً معه. كانوا كأنهم يستجيبون لرغبتي، يتركونني لحالي، لا يطالبونني بأيّ شيء، ولا يكلمونني إلا لماماً. بدوري، كنت راضياً عن هذا التصرف بامتنان غامض، مثل مَلِك يرضى بتبجيل يشعر أنه ليس صادقاً.

لم يكن أيّ حادث قادراً على تغيير حالتي النفسية. عدا ما تركه هذا التحوّل في روحي، لم يكن أيّ شيء خارجي يشوش عليّ، كما لم يشوِّش الصفاء الطبيعي، في السابق، على طريقة وجودي.

كل هذا - عدم وجود أمر يصرف انتباهي، حرص الجميع على أن يتركوني منزوياً وشأني، وأيضاً الفتور الذي كنت أشعر به تجاه الجميع وتجاه كل شيء - ساهم في أن أستسلم كلياً لتلك الحياة التي لا شكل لها، لذلك الإحساس الذي لا اسم له والذي أصبح هو ماهية كياني.

III

وبعد ذلك بقليل - لا أدري كم من الوقت - وذات سهرة من سهرات الشتاء الطويلة الدافئة داخل البيت، حين تنهي الخادمات يومهن نائمات حول موقد الجمر وذقونهن مدفونة في الملابس المنزلية، حين يُسمع زعيق الإبريق في المطبخ، ويسود إحساس دافئ بأنْ لا شيء هناك في الخارج، حين يتأخر العشاء ولا يهم إن تأخَّر، وتتركنا غفوة غامضة مستيقظين، حين لا تبقى قدرة للعقل على

التفكير، ولا قوة في الفؤاد على الإحساس، وتبدو موصدة، كأنّ ذلك للأبد، أبواب الإرادة ونوافذها. أثناء سهرة من تلك السهرات التي اعتدت أن أتأمل أثناءها، كما لو أنه بدل النوم، ينسلّ لغز الحياة كأنه شيء يتقدَّم بلا ضجّة عبر الدهليز المعتم، فلا نتعرَّف خطاه، ويلجُ في الأخير إلى الغرفة. أخيراً، أثناء سهرة من تلك السهرات، استطاعت نار قلقي الدائم أن توقد قراري.

كنت قد غفوتُ تقريباً، عاجزاً عن الهروب من قلقي، وعن التخلُّص من سحر غفو تلك اللحظة. مجبَراً، كنت أجترّ الإحساس بالغموض الذي يطبع تلك اللحظات التي [ ][1]، فيظهر أمامي من جديد. كنت بحاجة إلى شيء من الخمول كي أبعد عني تلك الأفكار. تركتها تأتي كمن يسمح أن يتعقبه مَن يزعجه دون أن يتسبب له في أذى. فأصبحتُ عرضة لذلك التأثير القديم الذي، نظراً إلى انزعاجي، كان يلهيني، وربما هو الآن أيضاً يشغلني عن ألمي الجديد.

لكن، لم يحدث ما كنت أتوقعه. وما كاد يظهر ذلك التغير الطفيف على ملامح الأشياء حتى جهرت بسرها، وسرّ كل شيء. وما إنْ ظهر جلياً غموضها مع اختلاف تلون الأشياء وحضور الروح، حتى أدركتُ، بعيداً عن القلق الدائم الذي يسكُنني، أن ذلك القلق يلتحم معها، وينصهر فيها. فأصبحت شيئاً واحداً، لكن، لعدم الدهشة الذي تسبَّب لي فيه ذلك الأمر، رأيت أن قلق اللغز لم يُضَفْ

---

(1) كلمة لا يمكن قراءتها (محققتا النص، آنا ماريا فْريتاشْ وتيريسا ريتا لوبيشْ).

إلى قلقي الدائم، بل خرج من داخله. شعرت أنهما الشيء نفسه وكذلك كانا دائماً. هذا التحقق أصبح قلقاً ثالثاً، وانضاف إلى القَلقَين الآخرين. إنّ مساءات أحلامي في غابة الصنوبر، وكيف انتهت مع قدوم الرجل ذي الملابس السوداء، انصهرت مع سهرات القلق فأصبح الرجل يبدو لي هو الآن، الشخص نفسه، كأنه كان موجوداً مسبَقاً بشكلٍ غامض، وحاضراً كأنه وراء ستار، أو يتظاهر بالمرور في عتمة الدهليز، بل لا يتمكن من تجاوز عتبة الباب.

لا أدري كم من الوقت استغرقتُ في هذه الأفكار، أو الأحاسيس، إذ لا أدري إن كان التفكير إحساساً. لكني أعرف أنني في أوجّ ذلك القلق - وقد بلغ هذا الأوج - تذكرت فجأة، دون أن أذكر وجهه، تلك الكلمات التي قالها الرجل ذو الملابس السوداء:

لا تحدق إلى الطريق؛ اسلكها.

لحظتها قررت أن أرحل.

IV

لا تحدق إلى الطريق؛ اسلُكها، لكن كيف أسلكها، إلى أيّ حد؟ أسلكها كما يفعل مَن يأتون من المدينة أو يقصدونها، كمن يذهبون ومَن يرجعون؟ كمن يأتون من أجل البيع والشراء، كمن يأتون ليروا ويسمعوا، كمن يرحلون، وقد ملوا من السمع والمشاهدة؟ كمن من هؤلاء؟ أو كأيّ شيء مشترك بينهم جميعاً؟ أو بأيّ طريقة تختلف عن طرقهم جميعاً؟

مهما كان الأمر، لم يكن لي بدّ من الذهاب. مهما كانت طبيعة قلقي، فإن مسكِّنها - وكنت أعرف جيداً أنه ليس بدوائها - كان هو

الرحيل، أن أذهب عبر تلك الطريق إلى حيث يشاء **القدر**. لماذا، لأيّ غرض، بحثاً عن أي شيء؟ كنت أجهل ذلك كما لم أكُن أعرف طبيعة قلقي.

أياماً طويلة، بين البكاء والعتاب، أراد والداي أن يصدّاني، وطلب مني الأصدقاء أن أبقى، وشعرتُ بالتوسل الصامت في عيون الخادمات العجائز. لا أدري ما قلته، ولا ما قدَّمت من توضيح. أياً كانت الأسباب التي قدَّمتها فإنها بالتأكيد غير صحيحة، لأنها لم تكن لديّ أسباب، ولم أكن أشعر أنني أملكها. أمّا الحجج التي قد أقنعهم بها، فلم أكن أدري أياً منها سأستعمل، إذا كنت لا أملك أي واحدة منها. أعرف فقط أنهم، في الأخير، دون أن تجفّ دموعهم أو تكفّ أحزانهم، تركوني أفعل ما أشاء. ربما كانت القوة الصامتة والمُقْنعة لذلك القرار الذي كنت أرغب فيه بقوة، بعد أن استحوذ على الذهن، هي التي كلَّلت محاولاتي بالنجاح.

لم أبتهج لهذا النجاح، ولم أقلق كذلك. لا أذكر ما أحدثه في نفسي من تغيير. ربما لأنني قررتُ بشكل قوي أن أرحل فلم أتخيل الصعوبات؛ ربما لأنّ الرحيل هو ما كان يهمني وليس الاستعداد لذلك؛ الأكيد أن قلقي الذاتي لم يفتر، ولم تزدَدْ حدّته، ولم يتغير.

وأخيراً، جاء يوم سفري. بكوا جميعاً من حولي؛ لا أدري إنْ كانوا يبكون فقط لرحيلي، أو لأنهم يشعرون أنني أرحل من دون هدف، أو لأنهم يظنون أنني لن أعود أبداً. لم أكن أهتم بكلّ ذلك العتاب، وإن كنتُ أكترث له. كان شيء ما يأخذني نحو الخارج بعيداً عن ذاتي.

في اللحظات الأخيرة التي قضيتها في البيت، في تلك

اللحظات التي كنت فيها لوحدي، فجأة، ودون أن أعرف كيف حصل ذلك، برز من جديد في ذهني وجه الرجل ذي الملابس السوداء، بكلماته، كما تذكّرتها، فتطفو على سطح ذاكرتي من جديد.

انتبهتُ حينئذٍ كم كانت غامضة، وغير واضحة. عليّ ألّا أحدق في الطريق، بل أن أسلكها. كنت أفهم معنى ألّا أحدق إلى الطريق، لكن أن أسلكها، لم أكن أدري كيف أفهم ذلك. أن أسلكها لأيّ غاية، تساءلتُ مرة أخرى؛ أن أسلكها لأيّ غرض، ونحو أيّ وجهة. وكما كان الشأن لحظة السؤال، رأيتُ الجواب. بما أنّ الطريق تأتي من المدينة التي أتحدَّر منها، وحيث يوجد بيتي، وحيث تنتهي الطريق لأن [المدينة][1] توجد على شاطئ البحر، فإنه يتعين عليّ أن أسلك الطريق باتجاه المناطق الداخلية للمملكة، دائماً في الاتجاه نفسه. وكما أمرني هو أن أسلكها وليس أن أتبعها حتى نقطة معينة، فعليّ أن أسلكها دون توقف، حتى النهاية... وأنا أفكر في ذلك، تذكرت فجأة أنه في تلك الكلمات العميقة كانت توجد نهاية الجملة التي قالها لي الرجل ذو الملابس السوداء وأنني - أرى ذلك الآن - تذكرتها بشكل ناقص. ما قاله الرجل كان: **لا تحدق إلى الطريق؛ اسلكها حتى النهاية.**

لكن، هل قال ذلك بالفعل؟ مهما كان الأمر، كان هذا هو معنى الجملة.

---

(1) بين معقوفتين في النص (محققتا النص، آنا ماريا فْريتاشْ وتيريسا ريتا لوبيشْ).

لكن لماذا أسلك الطريق؟ لأي غاية؟ وإلى أيّ حد؟ آه، لو أنه قال لي لماذا، وإلى أيّ حد، لسلكتُها من أجل أن أسلكها فقط، لأسلكها كي أصل إلى النهاية فقط، من أجلها فقط، دون البحث عن أي شيء، دون أن أريد شيئاً، دون أن أرغب في الوصول لأيّ مكان. ولكن عليّ فقط أن أسلك الطريق، لا أفكر سوى في أن أسلكها، ولا أرغب أبداً في أن أحيد عنها.

حينئذٍ فكرتُ (واندهشت)، لأول مرة، أنني لم أفكر أبداً في البحث عن الرجل ذي الملابس السوداء؛ وأنه، في كلّ ما أفكر بشأن الرجل وكل ما جعلني أفكر فيه، لم تكن لديّ رغبة في البحث عنه قط، ولا رغبة مجردة، ولا غاية.

إذن لماذا تذكرت، حين فكرت في أن أسلك الطريق لأسلكها فقط، أن أسلكها حتى النهاية، لأن ذلك هو أن أسلك الطريق، بحثاً عن الرجل ذي الملابس السوداء؟ لماذا تشمل حياةٌ الحياةَ الأخرى، وتكون، لست أدري بأيّ شكل، هي الحياة الأخرى؟

ماذا يهم، بعد ذلك، لو أن القلق كان قوياً، والغاية، رغم غموضها، واحدة لا غير؟

هكذا، وأنا ألجُ الطريق، رحلت تاركاً خلفي بيت والديّ، وحياتي الماضية، ومدينة مسقط رأسي على شاطئ البحر.

V

سلكتُ الطريق لوقت طويل، وتوغلت شيئاً فشيئاً داخل البلاد. ليس لي ما أحكيه عمّا حدث لي أثناء السفر، لأنه لم يحدث لي شيء يختلف عمّا يقع لكل المسافرين، حين لا يجدون ما يحكونه

غير سعادة بعض اللحظات أثناء المسار والتعب الجميل الذي يشعرون به ليلاً حين ينامون في المآوي، وهم مرتاحون لسفر يومهم.

مررتُ عبر عدّة مدن وقرى، رأيتُ حقولاً من كلّ الأصناف، ومشيت بمحاذاة أسوار عدة ضيعات. صادفت من يقصدون مدينة مسقط رأسي، ومن يغادرونها، بعضهم سعيد، وبعضهم حزين، البعض منشغل، وآخرون مرتاحون، لكن لا أحد ممّن رأيتهم كان مثلي، لأنه كان يبدو لي أنهم يسيرون جميعاً نحو وجهة محددة، وأنا لم تكن لي من وجهة سوى الطريق، وبدا لي أنهم جميعاً يبحثون عمّا يعرفون وأنا الوحيد مَن يبحث عن **الرجل ذي الملابس السوداء** الذي لا أستطيع أن أتذكره.

لا أعرف كيف أصف بدقة أي نوع من الأحاسيس أو الأفكار التي ميَّزت حالة فكري المعتادة أثناء السفر. ربما نظراً إلى المسافة التي تفصلني عن ذلك لا أتذكر شيئاً، ولا يهمني أن أتذكر؛ الأكيد أنه، نظراً إلى غرابة الأحاسيس والأفكار التي كانت تخالجني وأنا أغادر البيت، فإنه لم يكن من السهل تحديدها، ولو لحظة الشعور بها؛ لكن تلك الأحاسيس الأخرى التي رافتني أثناء السفر، لا أدري إنْ كانت مشابهة أو مختلفة.

لا أعرف أيضاً كم عدد الأيام التي مشيت، أو مشيت وقتاً أطول ممّا اعتدنا على عدّه بالأيام. مَن لا يفكر سوى في سلك الطريق لا يعدّ الزمن، ولا يدري الخطوات التي يقطعها. أعرف أنه، بعد مرور عدد غير محدَّد من الأيام، بدأت الحقول تتغير، كما بدأ يتغير شكل البيوت، وقامات الأشجار، وأناقة الواجهات، كما أنّ الطريقة المختلفة التي يتحرك بها الناس أصبحت تشي بأنّ مدينة كبيرة

جداً على مرمى حجر. وبالفعل، كنت في ضواحي أكبر مدينة في المملكة، بها ميناء واسع على ضفة نهر عظيم، وحيث التجارة، والصناعة وتمركز الحياة يجعل المصائر والنوايا تتكاثر وتختلط.

مشيت خطوات قليلة، مقارنة مع ما قطعته إلى حدّ الساعة، فبلغت أبواب المدينة. توغلت في الفضاء الواسع بين أسوارها. لا أدري كيف أشرح بأيّ تأثر، مزيج من الفضول والقلق، لا أدري كيف أشرح بأي فضول أو قلق، شعرت أنني جزء من تلك الحشود التي كانت كما النهر ذي الألوان المختلفة تتمايل في الأزقة، وتصبّ في الساحات الفسيحة، وتمتدّ في بهاء نحو الشمس.

قررت أن أتوقف هنالك لبعض الوقت، شيئاً ما بسبب التعب وشيئاً ما بسبب الفضول، وشيئاً ما بسب الحاجة إلى اتخاذ قرار أحسن أيضاً، وشيئاً ما وعياً مني بأنّ تلك المرحلة تشكِّل، بطريقة ما، جزءاً من مصيري.

في[1] الذهب البني لخصلات شعرها، في الأبيض الوردي لوجهها الصافي، في طبعها المتوتر والغريزي، حيث يرقد لطف وحش وديع وحماس شجرة بنسغها، وكيانها يلقي ببهائه في كل أجواء الحياة. تمايُل صدرها، الثابت والقوي، له مرونة الحيوانات والجوع الطبيعي للجذور. كان كلّ كيانها ينهال علينا بسائل جدّ قوي

(1) هناك فجوة واضحة بين هذا المقطع وما سبقه (محققتا النص، آنا ماريا فْريتاشْ وتيريسا ريتا لوبيشْ).

حتى أنه يستحيل وصفه بالدقيق، وقوي لدرجة يشدنا إليها كما لو أنّ حيويته هي تلك الشجرة المعروفة عند المسافرين القدامى والتي تقبض أغصانها كالأذرع بقوة على كلّ شقي يدنو منها. كل هذا، ربما، مبالغة لما كانت عليه، لأنها لم تكن سوى مجرّد حيوان بشري وغريزي، يرتبط بالحياة بكل الغرائز ويشتهي في نهم كلّ الأشياء الطبيعية بطلاقة وروعة.

ما إن رأيتها حتى عشقتها. وما إن كلمتها حتى فقدتُ روحي من أجلها. عيناها، اللتان كانتا ناراً في حيرتي، نزلتا لهيباً إلى الأعماق النائمة في كياني. وجعلني لمس يدها أنسى كل شيء، بل إن وعيي، إذا كنت إلى جانبها، يكون ناراً متّقدة في جسدي وتجعلني أشعر بشراييني في رعشة ممتعة.

لا أدري الساعات التي عشتها منذ أن عرفتها. سعيدة، وفرحة بما أيقظته في ذاتي، كانت تحبني بدورها. كانت تربطنا وُثُق خفية. يشعر بها كلّ واحد منا ويريد أن يشعر بها إلى الأبد. سجنٌ جميل ذاك الذي تشعر فيه الإرادة كأنها في نوم مريح، ولا يرغب الذكاء في مهمة أخرى غير فهم سحر جديد عند الحبيب، وكلمات جديدة يقولها له لتُعيد بشكل مختلف الوهج نفسه، والمُنية نفسها، والرغبة نفسها.

كلما[1] أردت بقوة أن أركز أفكاري على الطريق يظهر وجه

(1) ندرج هنا مقطعاً من الدفتر رقم 144U الذي يبدو أنه يتناسب مع تسلسل الأحداث (محققتا النص، آنا ماريا فْريتاشْ وتيريسا ريتا لوبيشْ).

حبيبتي وسطها، يحجب نظري، فتسرّني رؤيتها وتمنعني من رؤية الطريق الذي رأيته في الحلم. فكرت ألف مرة ألّا أفكر إلّا في الطريق لوحدها، وغالباً ما كان فكري يرى ذلك الوجه الرائع يظهر ليمنعه من مواصلة التفكير.

كانت ألف حجة تظهر في فكري لتصرفني عن هدف كنت بالكاد أحلم به في هدوء. أحياناً أتساءل إنْ كانت الطريق لا تستحقّ كلّ ذلك العناء لأنها أخذتني إلى حبيبتي. أتساءل إنْ لم يتم تذكيري بالطريق من أجل ملاقاة مَن أحب. كيف كان لي أن ألقاها، وأعشقها، إن لم أسلك الطريق؟ وبسلوك الطريق، وملاقاة مَن لم ألقَه قط من قبل، ألم يكن ذلك هو غاية الطريق، والهدف من سلوكها؟ لقد خرجتُ بحثاً عن المجهول؛ تلك المرأة، قبل أن أعرفها، كانت مجهولة بالنسبة لي. والحب، قبل أن أجده، كان شيئاً لم أصادفه من قبل، لماذا لا أتوقف هناك، دون رغبة في التوقف؟ لماذا لا أريد ما كنت أرغب فيه؟ أي شيء آخر أرغب فيه، إنْ لم أكن أريد المزيد، إذا كان كلّ ما كنت أريده هو تلك التي أعشقها؟

هذه الأفكار، وآلاف الأفكار الأخرى، بعفويتها وبساطتها، كانت تشغل فكري، وتشغلني لأنها لا ترضيني، ولم أكن أملك لها جواباً. لم يكن لديّ جواب، لأنني كنت أضعها متسلسلة، فأعرف مسبقاً أنها من دون جواب. ولم تكن ترضيني، رغم أنني لا أملك لها جواباً، لأنني لم أكن أقبلها. لم تكن ترضيني لأنها لم تكن ترضيني. كان منطقي يرتاح لمنطقها؛ لكني لم أكن أرغب في إرضاء منطقي. وإن لم يكن لأجل المنطق، لماذا كنت أستعمل حججاً لا تخدم ولا تقنع غير المنطق، ولا تتكلم سوى لغة المنطق؟

إذا ما فكرت في هذا الأمر، وبحثتُ في ذاتي عن أيّ طرف لا أرضيه، أتساءل، بالطبع، إنْ لم يكن العقل، فسيكون الفؤاد الذي يجيبني إن كل شيء تشغله صورة المرأة المحبوبة. أي حرب هذهِ التي تدور رحاها بدواخلي ما دام العقل والفؤاد في الصف نفسه، وما دامت الإرادة هي الغنيمة التي يُحارب من أجلها، ومع ذلك ما زالت في الظلّ قدرة مجهولة لا يستطيع الفكر والقلب معاً هزمها ولا هدمها. هل تستمد ربما قوتها من سرها، مثل العدو، الذي يخفي الليلُ أعداده، فيبدو كثيراً، لأن السرّ ينضاف إليه، ثم ينضاف إلى السرّ ما يتولد عنه من رعب، وينضاف إلى الرعب الخيال الذي يتيحه؟

أفكار جوفاء، كأنها حجج تُقدم لشخص غبي، لا يفهم الحجج، ولا المنطق! لكن مَن يخاطب غبياً، بعد أن يتعب من الخطاب، يعرف أنه يتكلم سدى. لكني لم أكن أعرف مَن أخاطب، ولا لماذا لا يفهمني. كأنّ أحدهم شدّني ليلاً من ظهري من كثب فلا أستطيع أن أستدير لأراه، وحتى إن أدرتُ رأسي لا أرى سوى ما وراءه.

لم تكن ساعات، ولا أياماً، بل كل ساعة كانت كأنها يوم، وأنا منشغل بهاته الأفكار، دون نتيجة. وكلما تحركتُ، كنت واثقاً أنني لم أبرح مكاني، مثل طفل فوق أرجوحة، مهما علا وارتفع لا يتجاوز الشجرة التي شُدَّت إليها الأرجوحة، وما يتظاهر بأنه قطعه من مسافة في الجهة الأولى سرعان ما يفقده في الجهة الثانية، لكن ما يُمتع الطفل ويسرّ جسمه، لا يمتع أبداً مَن ليس طفلاً ولا يسرّ ما يخالج روحه.

بَيْدَ أنّ كلّ هذا التردُّد كان له تأثير حقيقي ودقيق على حياتي. كلّ متعة، دون أن تكفّ عن كونها متعة، أصبحت ألماً بالنسبة لي. عندما أرى المرأة التي أعشقها، كانت تنتابني السعادة المعتادة نفسها، لكني كنت أشعر أنّ ظلاً يخيِّم على تلك السعادة، أو يلفّها بالسواد. كان قلقي داخلياً فقط، لأن الآخرين لا يلاحظونه، خصوصاً تلك التي، رغم أنها هي سبب سعادتي، كانت سبب قلقي أيضاً، وما دامت هي مَن أبحث عنها لم أعُد أدري إنْ كنت أبحث عنها أم لا. إذا ما شعرتُ أنني أحبها أتساءل إن كنت أحبها. وإن كنت أحبّ شيئاً آخر، أتساءل عن أيّ شيء، إن لم أكن أحبّ سواها!

حاولت أن أقنع نفسي أنّ هذا العذاب هو من الأمل، حين يكون الأمل هو أنّ المرء لم يفلح بعد بالمُراد. حاولت أن أقنع نفسي أنها، بعد أن تكون لي، ستحمل لي تلك السعادة التي كانت تنقص سعادتي؛ وأن ألم سعادتي من نقصانها، وأنه أينما كانت ناقصة لم يكن لها وجود، وحيث لا وجود لها، وأنا ألاحظ عدم وجودها، أنتبه إلى أنني لم أكن سعيداً. لذا ظننتُ أنّ الأيام، وهي تتسارع، تأخذني نحو يوم الزفاف، وتحملني أيضاً إلى يوم الفرح، ذلك اليوم.

لكن أكبر عذاب - سرعان ما أدركتُ ذلك - كان هو أن أشعر، مهما كان سبب ترددي، أن الهدف من التردد هو أن أتخذ قراراً. وإن كان عليّ أن أتزوج تلك المرأة، التي طالما تمنّيتها، فأيّ قرار سأتخذ، إن كان يجب أن أختار بين هذا القرار أو ذلك، وأي قرار

آخر يمكن أن يكون سوى ألا أتزوج؟ وإن لم أتزوج ماذا سأفعل غير أن أهرب، وأسلك الطريق دائماً؟

كل شيء في ذاتي كان يريدني أن أتزوج: الحب، والسعادة، والامتنان لمن أحب، والخجل الذاتي من أن لا أجرؤ على ما أريد، ولا أنهي ما بدأت، ولا أنجز ما أقدمتُ عليه. إذا كان كل شيء يدلني على درب واحد، لماذا لا أسلكه؟

لم تكن تفصلني إلّا أيام قليلة عن اكتمال سعادتي، عندما كنت لوحدي، في ساعة متأخرة من الليل، بعد أن عدتُ للتو من بين أحضان حبيبتي، فحاولت عن قصد تأجيج عذابي، حتى أهزمه أو يغلبني، وينجلي أخيراً ما كان يلفّه الشك. ومن جديد استعرضت أمام عيني العقل كلّ حجج المنطق، وكلما أنجزت ذلك بدقة كلما ترسَّخت صورة الحبيبة في الجسد، والتصقت بكلّ الحواس. ومرة أخرى، على نار العشق أدفأتُ، وصهرتُ، وتبّلتُ حججي. ومرة أخرى، أخذتها نحو تلك النتيجة نفسها. إذا كان كل شيء يدلني على درب واحد، لماذا لا أسلكه؟

لكن، هنا، فجأة، انقلب ضدي مسلسل حججي وكبَحَني. إذا كنت أريد شيئاً يمكنني أن أشير إليه، لأعرِبَ صراحة عن أنني أريده، كالدرب مثلاً، فما أدراك إنْ كان طريقاً سأسلكه، وهو درب حقيقي! إذا كنت أبحث عن صورة شيء لا يتوقف لأقتنع بأنْ أتوقف، فكم سيكون نصيب هذا الشيء من الحقيقة! إذا كانت صورته تفيدني في إضفاء الحقيقة على حجتي، فكيف يمكن لذلك الأمر ألا يكون حقيقة، ومن أين أخذتُ تلك الصورة؟

دون أن أفهم نفسي؛ دون أن أجرؤ على تأويل ذاتي، أوقفت

تفكيري. كأنّ الأفكار قد انفضَّت من حولي. بقيتُ في الخلاء داخل ذاتي.

وفجأة، التفتت عيناي إلى الوراء، إلى بداية الرحلة، إلى الإحساس القَلِق الذي أخذني إليها، إلى القدر الغامض الذي وضعها في روحي. وفي لحظة من الأفكار المتعدِّدة، تذكرت.

توجهتُ مرة أخرى، إلى ذلك الماضي البعيد، إلى تلك اللحظة قرب سور المزرعة، حيث ظهر أمامي الرجل ذو الملابس السوداء. ومن جديد ردَّدت بصوته مع نفسي الكلمات التي قالها:

- لا تحدق إلى الطريق؛ اسلُكها حتى النهاية.

ولأول مرة، كما لو أنني لم أنسَه، سمعت نبرة جوابي السلبي ثم كلماته، بعد ذلك:

- لم يحِنْ الوقت بعد؛ لن أرحل إلّا عندما أشعر بقلق التوقف.

وقد توقفت! كم توقفت من يوم! واحسرتاه، كم توقفت مسروراً! توقفت لأنني كنت أعشق، وأرغب، وأحب، لكن ماذا كان العشق، والرغبة، والحب، سوى التوقف [على الأقل رغبة في الدرب][1]. هل توقفت لأنني كنت أحب؟ لكن كيف أتوقف من دون سبب؟ هل أَسَرَني وجهٌ ساحر؟ وما الأسر سوى الحيلولة دون متابعة السير! وما السحر سوى التوقيف!

للحظة كنت لا أزال أسمعني أعاني، فبدا لي أنّ فكري ليس به قدرات، بل قلق. ثم تردَّدت لحظة مرة أخرى. بعد ذلك، وكأني إله

(1) بين معقوفتين في النص (محققتا النص، آنا ماريا فْريتاشْ وتيريسا ريتا لوبيشْ).

حُكمَ عليه بالموت الذي خلقه هو نفسه، قررتُ الرحيل. لا أستطيع أن أؤكد كم كلَّفني الرحيل، وليس بإمكان أيّ كان أن يقوم بذلك مكاني. لكني قررتُ أن أرحل، أن أذهب، وأغادر. وضعت فوق كتفيّ متاع المسافر. كان خفيفاً لأنّ ما ثقل عليّ هو القلق، ذلك الإحساس الوحيد الذي كان ينتابني. ثم رحلت وأنا أبكي عالياً داخل دمي وحياتي. رحلتُ مهرولاً، في عزّ الليل، هربت، بغضب مجنون، كما لو أنني أريد أن أذهب إلى أبعد من ذاتي، أو أخلف ظلي ورائي. جَريتُ، وجَريتُ، وجريت فشعرتُ كما لو أنّ الزمن قد توقّف وأنني لا أتحرك، كأنني متوقّف، سجين في زنزانة ضيقة من معاناتي.

لكني رحلت. كنت أحمل روحاً جافة، قاسية، منتهية.

وفي مركز قعرها، كأنها قطرة طلٍّ رقيقة، كانت ترقد سعادة غامضة لانعتاق عظيم.

خرجتُ أبكي إلى أقصى باب في المدينة.

وأمامي، نهراً جامداً تحت ضوء القمر البارد، كانت الطريق تمتدّ إلى ما لا نهاية.

تذكير بالأحداث السابقة وملخص نهاية القصة[1]

في بيت والديه.

يزوره الرجل ذو الملابس السوداء، ويسأله عن اسم لا يستطيع تذكره بعد ذلك أبداً، ودون أن يعرف السبب، يقترح عليه الفكرة المقلقة بأنْ يذهب للبحث عنه عبر العالم.

---

(1) هذا النص كتبه فرناندو بيسوا (محققتا النص، آنا ماريا فْريتاشْ وتيريسا ريتا لوبيشْ).

ورغم أن الأبوين بكيا وتوسلا إليه ألّا يذهب، فقد اتّخذ قراره وأخذَ يسير، إذ خرج من بيته، في المدينة الشاطئية، متوغلاً شيئاً فشيئاً داخل البلاد.

ثم قضى بعض الوقت في أول مدينة داخلية وصل إليها. هناك عشق فتاة ذات جمال استثنائي وشهواني (اللذة). كان معدن خاتمها من [. . .][1].

بعد أن شعر بجاذبيتها الجارفة، تمكّن (لأنه لم يستطع أن يكفّ عن التفكير في الرجل ذي الملابس السوداء الذي دفعه للبحث) من أن يستجمع قواه ليتخلّص من حبها، ويتركها، وهو ما قام به ليلاً، في ما يشبه الفرار. فشعر بالفرح وقد تخلَّص منها، لكنه في الوقت ذاته أحسَّ بالحزن لذلك الفراق، حيث يبدو أنه قد ترك كلّ ما يصنع بهجة الحياة ويجعلها حَرِيَّة بالعيش.

في المدينة الثانية، بعيداً أكثر داخل البلاد، حيث حلّ وعاش لبعض الوقت، عشق فتاة أخرى (المجد). جمالها مادي، لكنه ذو مسحة روحانية. ينظر إليها الجميع عندما تمرّ، سواء رغبوا فيها أم لم يرغبوا. كان معدن خاتمها من [. . .]. لكنه ذات يوم تذكَّر هدف رحلته، ورغم ما كلفه ذلك من معاناة استطاع أن يفترق عنها ويتابع سفره. رحيله الآن لا يشبه الفرار، لكنه ما انفكّ يلتفت عدة مرات إلى الوراء. لم يودعها كذلك، لكن، وهو يتركها، شعر أنّ عزاءه أخفّ من عزاء المرة السابقة، رغم أنّ فرحته بالنصر كانت أكبر بكثير.

---

(1) تشير العلامة [. . .] إلى حذف في النص الأصلي للكاتب (المترجم).

في المدينة الثالثة، الواقعة في أعلى جبل عظيم، تحيط بها أسوار صارمة وكئيبة، عشق فتاة ثالثة، قشتالية عريقة من تلك المناطق، هي سيدة المدينة دون منازع. إنها تمثل السلطة. كان معدن خاتمها من حديد[1]. حدث له ما وقع في المرتين السابقتين، مع بعض الاختلافات الضرورية. لم يكن حبه لهاته، كما في المرة الأولى، عشقاً جنونياً يستحوذ على الذهن؛ ولا كما في المرة الثانية، رغبة جامحة يغلب عليها القلق أكثر من التشويش. لقد أحب هذه الأخيرة بعشق هادئ ومتوهج. كان جمالها جليلاً وشامخاً؛ وبين ثنايا عباءتها تكمن جلالة عظمتها. وحدث الشيء نفسه. تذكَّر هدفه، فرحل، ولم يجرؤ أيضاً على أنْ يودعها، رغم أنه زارها، لكنه لم يخبرها أنه يراها لآخر مرة. «من بعيد، في الطريق عبر السهل، نظرتُ ملياً إلى الأبراج العالية عند قمة الجبل، وكلها من ذهب صقيل يلمع تحت شمس الغروب».

لقد توغّل الآن في المناطق الداخلية من البلاد، بعيداً عن المدن. ثم بلغ بلدة هادئة، عند منحدر أحد الجبال، حيث كل شيء هادئ ورائع. تغطي القناطر النهر الذي يعبر الوادي. المنازل متقاربة وسعيدة. وهناك عشق ابنة راعي الكنيسة، فتاة جميلة، على درجة كبيرة من عذوبة المعاملة ووداعة الطبع حتى إنها تتجلى وتصير روحاً. أحبَّها حباً مفعماً بالحنو، يكاد يخلو من العشق. كان معدن خاتمها من [. . .]. وفي الأخير، حدث له ما وقع في المرات السابقة. تأخر كثيراً هذه المرة، لكنه رحل في النهاية. ودَّعها

(1) كلمة غير مؤكدة (محققتا النص، آنا ماريا ڤريتاشْ وتيريسا ريتا لوبيشْ).

فبكَت. عندما غادر البلدة شعر بالأسف لأنه يبدو أنَّ كل ما هو عذب وخالص قد هجر حياته. توغل أكثر داخل البلاد، فأصبحت البادية أكثر بداوة والجو أكثر غرابة وصفاء.

بلغ قرية صغيرة، ضائعة لا ترى، حيث مكث وقتاً طويلاً. أحب بعشق هادئ يكاد يخلو من الرغبة والحنان، وليس فيه غير الإخلاص والاحترام، فتاة تعيش لوحدها تتأمل كل شيء، تكاد لا تتكلم مع الآخرين، صامتة وطاهرة. إنها الحكمة. كان معدن خاتمها من [. . .]. وفي الأخير، رحل أيضاً. ودَّعها ورحل. كلّ وداع يكلِّفه معاناة أكبر، وفي كلّ مكان جديد يبدو له أنه لن يستطيع مغادرته. ومثل تلك التي تمثّل الحب، حاولت هذه أن تشده، وحدثته عن الحياة السعيدة التي لا يقوم فيها المرء سوى بالتأمل ولا يسعى سوى إلى فَهم الأشياء. لكنه رحل، أكثر فأكثر حزناً.

وهو يتقدم داخل البلاد، كان يتوغل في مناطق معزولة. وصل هذه المرة إلى بيت منعزل، تحفّه أشجار السرو، وقربه لا ينقطع خرير ماء منهمر، يدعو ليس فقط للتأمل، بل إلى السَّكينة المطلقة. تقطن ذلك البيت فتاة ذات جمال فظيع وغريب. عَشِقَها أيضاً. طبعها هادئ ورفيع، يشعر مَن يحبها كأنه قد حصل على عزاء التخلي عن كلّ شيء. حضورها يُنسي المرء كل كرب وطريقة حديثها تمسح الدموع عن الأعين. إنها الموت. تضع في يدها الطويلة والشاحبة خاتماً من فضة. وأخيراً، رحل أيضاً. أرادت أن تشدّه، فحدثته ليس عن نفسها، بل عن هدوء مسكنها بعيداً عن كل شيء، عن الصوت البارد والخفيض للماء المنهمر دون توقف، عن الهمس اللطيف للأوراق التي تكاد لا تتحرك. لكنه تذكر أنه غادر بيته الذي نسيه

تقريباً بسبب الرجل ذي الملابس السوداء بعد أن طرح عليه ذات يوم سؤالاً لم يعُد يذكر فحواه.

رحل، وبعد أن مشى طويلاً، وصل إلى ما يشبه كوخاً خشناً بُنِي، كما لو كان سقيفة، عند منحدر أحد الجبال. هناك ظهرت له فتاة سرعان ما أحسّ نحوها بحبٍّ لا يشبه أيّ حب آخر ممّا عرفه من قبل. لم يكن يعرف إن كانت الفتاة جميلة، أم أنيقة، أو كيف كانت بالضبط؛ كان يعرف فقط أنّ كل تلك الرغبات تشكّلت في ذاتها، وأنها هي أيضاً، بعد أن نالتها وتملّكتها، لم تكن تعرف لها شكلاً ولا صورة. إنها تمثل شخصيتها بالضبط. تضع في أصبع يدها، البسيط والخالص، خاتماً من ذهب. عشقها بحبٍّ ليس به رغبة، ولا حتى ولع - حبٌّ مجرد من كل شهوة ومن كل زهد - حبُّ مَن لقي مَن كان يبحث عنه منذ مدة ويشعر بشيء يفوق السعادة، لكن، هناك تذكَّر أنه لم يأتِ بحثاً عنها هي. لذا شعر بحزن كبير، وقرَّر الرحيل. حاولت أن تشدّه. قالت له إنه حسناً فعل حين قَدِمَ إلى هناك، حيث لا يصل أي شيء من الدنيا، بما في ذلك ما يصدر عنه هو أيضاً من زهد، لكن، بعيداً، وراء حدود البلاد، لا يُعرف إنْ كان أحد يسكن هناك. كان كل شيء مريباً وغامضاً. وأن عليه ألا يتخلى عنها. فقد سافر كثيراً وضحى بالكثير. وربما كانت هي سبب كل تلك التضحيات. أليس من أجل لقائها كان يبحث عن الرجل ذي الملابس السوداء في اتجاهٍ قاده في النهاية إلى ذلك المكان؟ كانت تلك أكبر غواية يواجهها، فكاد يستسلم. لكنه تذكر الإشارة الغريبة التي لم يوجِّهها له الرجل ذو الملابس السوداء، وبروح ميتة، فارغ الذات تماماً، رحل، رحل بعزم ثابت وسرعان ما توغل في أرض موحشة

ومقفرة، لا طُرُق بها، ولا حقول تزرع، بل من دون حقول أصلاً، لا شيء غير السماء والأرض، وجداول قليلة واحد قبالة الآخر.

مشى أياماً وليالي، وأخيراً، في وادٍ يخلو من جَمال الطبيعة ورغد العيش، وجد شيخاً زاهداً ذا لحية بيضاء، يعيش لوحده ناسكاً متأملاً، يجلس بمحاذاة كوخ وُجِّهت بابه إلى الشرق. يغطي جسده فرو جلد خشن، يتغذى على الأعشاب، ويشرب فقط ماء جدول يكاد لا يسمع خريره. كان هدوءه يفوق أي شكل من أشكال الهدوء التي رآها؛ ووجهه مرآة للسكينة، ليس انعكاساً للفرح، بل بالتأكيد للطمأنينة. قضيتُ[1] هناك أياماً جميلة، وقد تخلصتُ أخيراً من كلّ حب مهما كان نوعه. عرفتُ السعادة في ألا يملك المرء أي رغبة في امتلاك أي شيء. كانت تلك الحياة تجذبني دون أن تشدّني إليها. لكنه تذكرَ ما كان يبحث عنه فاضطرّ للرحيل. لماذا؟ سأله الزاهد بحزن. هل يستحق العناءَ إدراكُ شيء آخر أكثر من هذه الطمأنينة المطلقة؟ (هنا الرمز هو الشمس، تلك الدائرة المنيرة والدافئة كلّ يوم. لم تكن ثمة عواصف ولا سحب). الزاهد هو الطمأنينة.

رحل. تابع المشي، متوغلاً في هذه المنطقة الجديدة، التي كانت تبدو أكثر فأكثر جدباً وخلواً من الحياة. وأخيراً، في منطقة ليس فيها سوى الحجارة في جبل ضخم وقاحل، رأى ذات ليلة ضوءاً متوهجاً. اقترب مندهشاً نحو المكان الذي ينبعث منه الضوء. فوجد أنه مغارة كبيرة يشتغل بداخلها حدّاد على سندان مستعملاً ناراً

(1) في هذه الجملة والجمل الثلاثة الموالية، ينتقل الكاتب للحديث بضمير المتكلم (محققتا النص، آنا ماريا فْريتاشْ وتيريسا ريتا لوبيشْ).

عجيبة تبدو كأنها الشمس نفسها وقد جُرِّدت من شكلها، وقلّصت إلى جوهرها الناري الذي لا شكل له. (هذا الحدّاد هو الجهد، والطموح الذي لا يتوقف.) هنا توقفَ كثيراً، لكنه اضطر للرحيل، دون أن يعرف وجهته. حاول الحدّاد أن يشدّه دون جدوى[1].

مشى قليلاً فوصل إلى منطقة يحميها سور صعب وشاهق العلو، ليس به ممرّ ويشكل من أقصى نقطة إلى أخرى حداً بين هذه الأرض وأرض أخرى لا يمكن تصورها. كأنه وصل إلى أقصى حدود الدنيا. اكتشف في النهاية أنه لو ضغط على حجر كبير من أحجار السور العظيم والصلب فإن الحجر يبدو كأنه يتحرك. جرّب ذلك. وفجأة، فتحت هوة، يتمّ النزول إليها عبر أدراج لا يمكن عدها بالبصر. وأخذ ينزل؛ فلم يعُد يعرف كم من الوقت نزل ولا المسافة التي قطعها. تعب لكنه كان عازماً، فاستمرّ في النزول دائماً إلى أنْ وصل إلى ما يشبه فضاء دائرياً تنطلق منه عدّة سراديب (كما بدا لعينيه كالعالدة). فلاحظ أنّ واحداً منها ينزل، وبه عدد أكبر من الأدراج. نزل عبر هذا السرداب الذي به منعرج في مكان ما. عندما تجاوز نقطة معينة في المنعطف، شعر فجأة بشيء من الضوء، الذي بدأ يزداد كلما تقدم عبر السرداب. وأخيراً، أصبح الضوء قوياً بشكل مدهش، لكنه لم يكن مركّزاً مثل ضوء الشمس ولا حارقاً مثل ضوء النار. وصل أخيراً إلى قاعة واسعة يملؤها هذا الضوء وليس بها من مخرج سوى الباب الذي دخل منه. كانت تلك القاعة مليئة بالضوء

(1) جملة مشكوك في صحتها (محققتا النص، آنا ماريا فْريتاشْ وتيريسا ريتا لوبيشْ).

الذي لا ينطلق من أي نقطة، لكنه مشعٌّ كالهواء، يشغل القاعة فلا يُعرف مصدره. لم يكن ضوء حارقاً، وليست به النار الملازمة لكلِّ ضوء. كان ناراً من دون نار مطلقاً، ضوءاً سائلاً، مجرداً من أيّ شيء يُذكّر بالضوء المادي. وأخيراً، في الغرفة، كان يجلس إلى إحدى الطاولات الرجل ذو الملابس السوداء.

ملاحظة

إلى غاية نهاية الفصل الرابع، تحمل الوثائق الأرقام من 144U إلى 15 في المكتبة الوطنية البرتغالية. قمنا بحذف ثلاث صيغ نصية مختلفة في البداية، كما حذفنا بعض الهوامش.

يحمل الفصل الرابع - نحن مَن وضع هذا الترتيب، لأنّ هذا الفصل في الأصل يحمل رقم 2 لصيغة أخرى - الأرقام (22) 27 (6) E - 5 إلى 6.

قمنا بحذف الجملة الأخيرة غير الكاملة: **كان هو الفتاة**[1].

وتابعنا القصة باستعمال الوثائق الموجودة في الدفتر تحت أرقام 1444U-19 ومن 19 إلى 25 ظهر الصفحة، متجاهلتين مقطعين منعزلين في الصفحة الموالية.

وقررنا إضافة ملخص نهاية القصة غير الكاملة، وفق الوثائق التي تحمل أرقام من (6) E (22) 27 - ومن 1 إلى 4.

آنا ماريا فْريتاشْ

تيريسا ريتا لوبيشْ

---

(1) تعود «كان» هنا على الرجل ذي الملابس السوداء (المترجم).

سرقة في مزرعة فِنْياشْ[1]

(1) كتب بيسوا هذه القصة حوالي سنة 1918. اعتمدنا في هذه الترجمة على الصيغة التي نُشِرَت محقَّقة في شهر مايو 2008 من طرف الباحثة البرتغالية آنا ماريا فريتاش. نقلنا إلى العربية بعض الجمل والفقرات ناقصة كما جاءت في الأصل الذي بين أيدينا (المترجم).

I. معطيات عن الأشخاص، والأماكن، والقضية كما وقعت عند بداية التحقيق

طلب مني القائد مانويل غيديش - الذي يصرّ على أن تُحكى بكلّ حيثياتها، أو، على الأقل، أكثرها أهميه، مختلف القضايا التي حلها المرحوم أَبيلْيو كْواريشْما - أن أروي، إذا كنتُ أرى أن الوقت الذي مضى يسمح لي أن أقوم بذلك بكلّ حرية، واقعة سرقة مزرعة فِنْياشْ. وصلت قضية مزرعة فِنْياشْ سابقاً إلى علم مانويل غيديش بحكم معرفته الشخصية لكْواريشْما؛ لذا كلفني بهذا الأمر، وهو الذي لم يُحدّثه «فكاك الرموز»[1] أبداً عن هذه القضية إلّا بالإشارة ومن دون أيّ شرح.

بعد مرور كل هذا الوقت، تبدَّدت كل الأسباب التي يمكن أن تجعلني أتردَّد. وبما أنني أظن أنه لا يوجد، بالفعل، شخص آخر أحسن مني يمكنه رواية هذه القضية، قبلت التكليف الغامض للقائد غيديش؛ سأروي بتلك الدقة التي ما زالت ممكنة، وستبقى كذلك،

---

(1) «فكّاك الرموز» هو اللقب الذي يُعرف به المحقق كْواريشْما، الشخصية التي تظهر في كل القصص البوليسية التي كتبها فرناندو بيسوا.

نظراً إلى وقائع تلك الحادثة التي ما زالت راسخة بقوة في ذهني، وخصوصاً نهاية ذلك اللغز الظاهر.

توجد مزرعة فِنْياشْ في كولاريشْ[1]، قرب فارْزِيا. عندما وقعت السرقة - نهاية سبتمبر 1908 - كان مالك البيت، ضمن سلسلة طويلة من سلالة العائلة نفسها، هو العجوز جوزي مِنْديشْ بورْبا، أب صديقي جوزي آلفِشْ بورْبا. توفي كلاهما الآن، لكن البيت انتقل عن طريق البيع، عندما كان جوزي آلفِشْ لا يزال على قيد الحياة، لشخص آخر، وهو المالك الحالي الذي أجهل اسمه؛ وهذا أمر ليس مهماً.

في شهر سبتمبر ذاك من سنة 1908، كنا عدداً من الضيوف ننزل منذ بداية شهر أغسطس في ذلك البيت. بالإضافة إلى سكان البيت كنا جميعاً الأشخاص التالين: الأب بورْبا، الذي كان أرملاً، جوزي آلفِشْ، الابن الوحيد، والسيدة أدِلايْدي، أخت بورْبا، وابنتها المسماة ماريا أدِلايْدي، وشاب اسمه مانويل باراتا، وطالب عسكري وابن عم آل بورْبا، وفتاة اسمها إليزا (لا أذكر اسمها العائلي)، صديقة حميمة لماريا أدِلايْدي، وأنا، مدعواً لأقضي الفترة بين الصيف والخريف من طرف جوزي آلفش، صديقي في الإعدادية، الذي عدت إلى معاشرته، بعد أن جمعتنا مؤخراً بعض الأعمال التجارية الصغيرة في لشبونة. اسمي أوغوستو كْلارو، كان عمري آنذاك 25 سنة، وأشتغل مهندساً، كما كنت في تلك الفترة. بذلك ينتهي تقديم الأشخاص، بين أفراد العائلة والمدعويين، الذين

---

(1) منطقة شمال لشبونة تشتهر بزراعة العنب وإنتاج النبيذ (المترجم).

كانوا حاضرين أثناء وقوع السرقة. بالإضافة إلينا، كان هناك طبعاً العديد من الخادمين والخادمات، المعتادين في مثل هذه البيوت الكبيرة. لا أدري كم كان عددهم وعددهن جميعاً. كل ما أعلم أنّ أكثر مَن تعرفت عليهم من قرب كانوا هم المدعو أنطونيو، الذي كان يقدِّم الأكل، وبستاني طاعن في السن اسمه جوزي، وخادمة ربما كان اسمها ماريا، ترتب الغرف، أو، على الأقل، غرف بعض الضيوف، الذين كنت من بينهم.

عندما دعاني جوزي آلفش (كان يُعرف بهذا الاسم لتمييزه عن الأب) لأقضي تلك الفترة في مزرعة فِنْياشْ، أعترف أنني أظهرت بعض التردُّد. كانت مشاغلي، رغم أنها ليست كثيرة، تتطلب مني حضوراً يومياً في لشبونة؛ ومع أن كولاريش ولشبونة لا تبعدان بمسافة كبيرة، إلا أنهما ليسا مكانين قريبين، خصوصاً قبل أن يصبح استعمال السيارات أمراً شائعاً. لذا لم يكن من الممكن تصور الذهاب بمتعة كل يوم من كولاريش إلى لشبونة، والعودة يومياً من لشبونة إلى كولاريش، لكن، في الأخير، قبلتُ دعوة جوزي آلفش، وعند بداية شهر أغسطس كنت قد وضعت الرحال في مزرعة فِنْياشْ. كل الأشخاص الذين ذكرتهم سابقاً كانوا قد وصلوا واستقروا هناك، باستثناء الطالب العسكري، الذي وصل أواسط شهر أغسطس، خمسة عشر يوماً بعد قدومي.

II. رواية التحريات البوليسية، بما في ذلك العثور على أربعة سندات، وسرد صعوبات التحقيق (الذي أنجز على فرضية أن يكون الجاني طبعاً شخصاً مجهولاً)، إلى غاية اللحظة التي غادر فيها الراوي مزرعة فِنْياشْ

التفت المفتش مورايْش نحو زميله.

- هذه قلة أدب فظيعة. كيف عرف هؤلاء أنّ الجميع كانوا نائمين في تلك الساعة؟ كيف كانوا على علم أنه لن يظهر لهم أحد، لا يمنحهم ما يكفي من الوقت للفرار؟

فكَّر المفتش الآخر لحظة.

- أما أنهم كانوا يعلمون أن الجميع كانوا نائمين، فقد ظنوا ذلك لأنهم سمعوا ابن السيد... يصعد وأصبح المنزل هادئاً...

- لكنني بعد ذلك نزلتُ، قلتُ مقاطعاً.

- هل كنت تنتعل هذا الحذاء؟ سأل المفتش الثاني.

- نعم، نعم. آه، فهمت: إنه حذاء لا يثير ضجيجاً، وبما أنه بدا أن الجميع كانوا ربما نائمين، مشيت، بالحدس أيضاً، بأقلّ ضجيج ممكن...

- هذا بالضبط. لقد ظنوا أن الجميع كانوا نائمين. بعد ذلك مباشرة نفذوا...

- ومع ذلك هذه قلة أدب، ألح مورايش. - كانوا نائمين، لكن منذ وقت قليل فقط. ربما لم يمر وقت طويل بين صعود السيد الابن والانفجار.

- طبعاً، ما يكفي من الوقت لإشعال الذُّبالة وليصل الفتيل إلى نهايته.

- نعم، أجاب مورايش.

- هناك شيء، تدخلت قائلاً: - لماذا تتحدثان بصيغة الجمع؟ لماذا تقولان «هم»؟ هل ثمة سبب لتفترضا أن هذا الأمر لم يكن من الممكن أن ينجزه شخص بمفرده؟

ابتسم المفتش مورايش.

- ليس هناك من سبب، حقاً. لكنها التجربة... هذا عمل أناس محترفين، وهذا النوع من المحترفين لا يشتغلون أبداً إلا إذا كانوا جماعة.

- آه، فهمت...

- يبدو أنه ليس من الصعب جداً التعرُّف على مَن قام بهذا العمل. إنني أعرف تقريباً كل الشاطرين الذين يتسلّوْن بهذه الأمور. كلهم تقريباً يستعملون طرقاً أخرى، لكن ربما هناك شخص أو آخر يكون قد تعلَّم نظام الديناميت. لحسن الحظ، ليسوا كثراً مَن باستطاعتهم ذلك. يبدو أنه ليس من الصعب إلقاء القبض عليهم. والأسوأ أنهم اختلسوا سندات... هذا أمر لا يمكن أن يمر هكذا.

- ربما لم يكونوا ينتظرون أنهم سيجدون سندات، قال المفتش الشاب - لقد هاجموا الصندوق الفولاذي ليسرقوا ما بداخله. كانت السندات في متناولهم فبدأوا بإخراجها. بعد ذلك تعالى الإنذار. رأوا أن بعض الأشخاص ما زالوا مستيقظين في البيت. لم يكُن لديهم ما يكفي من الوقت للقيام بشيء آخر. فلاذوا بالفرار، طبعاً...

- ما من شكّ في ذلك، قلتُ. - هذا التفسير يبدو صائباً.

- شخصياً، على الأقل، لا أرى تفسيراً آخر، ثم هزّ القائد كتفيه.

*

كان المفتش ليما في سنٍّ غير محددة، لكنها ليست بالمتقدمة، له قامة ليست بالقصيرة كي يكون قزماً ووجهٌ مثل وجه النمس، بملامح حادة - بما في ذلك الأنف والذقن - وعينان صغيرتان وسوداوان، متحركتان وغارقتان في الوجه. وجه مثالي ليكون رسماً كاريكاتورياً لراهبٍ يسوعي لو لم تكن الرسوم الكاريكاتورية تجعل هذه الوجوه أكثر طولاً عند اليسوعيين، لكن قصر قامة المفتش ليما كانت تعوِّضها بشكل كبير عقليتُه المختلفة. لم أصادف ما هو أبعد من الوداعة الكلاسيكية لليسوعيين؛ بل أستطيع القول إنني لم أجد قط شخصاً يتكلم بشكلٍ مباشر أكثر من هذا الرجل. إنّ الأشياء التي يقولها الإنسانُ الأكثر جرأة بتدرج، ويخفِّف من حدّتها، في اندفاع طبيعي نحو احترام الناس، كان هو يقولها مباشرة، بصراحة، وبساطة باردة تُربك الآخرين بغرابتها.

ثم إنّ الكلمات الأولى، التي نطق بها بعد أن صدرت عن رأسه مثل تحية، دلّت على هذا الأمر بما يكفي من الوضوح.

- قدمت من المحكمة لأحقِّق في هذه السرقة. تقول الشرطة إنها من ارتكاب أشخاص من خارج البيت؛ لا أدري لماذا يقولون ذلك، لكن عليّ أن أتأكّد. ما أريد أن أتأكد منه أولاً هو إنْ لم يكن من الممكن أن يكون ذلك من تنفيذ أشخاص من داخل البيت. كم هو عدد الأشخاص الموجودين في هذا البيت بين أفراد العائلة والمدعوين؟

ظلّ بورْبا الأب حائراً تماماً بعد هذا الهجوم. بعد ذلك مباشرة ثار غضبه.

- إذن، إنك تشكّ يا سيدي. . .؟

- نعم، إنني أشكّ. أشكّ في كل الناس. لو كان ضرورياً، أشكّ فيك أنتَ أيضاً، ولو كنت ضحية لهذه السرقة. أعيد طرح سؤالي، الذي ستجيب عنه إنْ لم يكن هناك من سبب يمنعك من ذلك. مَن هم الأشخاص، بين أفراد العائلة والمدعويين، الذين كانوا في المنزل ساعة وقوع السرقة؟

حتى بورْبا الأب، المندفع عادة، يبدو أنه خطرت بباله فكرة أن يجيب صراحة عن السؤال. لذا، بعد أن قمع نفسه بمجهود جعل وجهه يحمرّ، ذكر بالتفصيل، وبصوت مرتعش شيئاً ما، كل الأشخاص الذين كانوا في البيت ليلة السرقة، وهم الأشخاص نفسهم الذين لا يزالون هناك، كما شرح.

- جيد، أجاب المفتش. سنرى الآن أين كان هؤلاء الأشخاص عندما وقعت السرقة. أنت وصديقك كنتما في قاعة الأكل تلعبان الشطرنج، أليس كذلك؟

- تماماً، لكن السيد بوربا لم يستطِع أن يقمع ما أضافه، - وهذا ما يدل على أننا لسنا من قام بالسرقة، أليس كذلك؟

- هذا يدل على أنكما لم تسرقا. لا يدلّ على أنكما لم تكونا متواطئين.

قال السيد ليما هذا كما لو كان من أكثر الأمور الاعتيادية، والتي لا يمكنها أن تؤثر في مخاطَبيه.

داعب المفتش شعر ذقنه المرهف، بينما كان بوربا يكبت احتقان دم ممكن. قال بعد ذلك:

- مَن كان في قاعة الأكل قبل ذلك؟

- عند العشاء كان الجميع حاضراً، أجاب العجوز. بعد ذلك، ذهبت السيدات وباراتا جميعاً إلى الصالة المجاورة، حيث ظلوا يعزفون الموسيقى ويتبادلون أطراف الحديث. عند الساعة الحادية عشرة، ذهبوا للنوم جميعاً باستثناء باراتا الذي التحق بي، مع ابني والسيد كلارو، حيث بقينا نتحدث أولاً، ثم نلعب الورق في قاعة الأكل.

أومأ المفتش ليما محرّكاً رأسه.

- سأبدأ بحضرتك، قال المفتش، متوجهاً إلى بوربا الأب. إنك لستَ مشتبهاً به بالنسبة لي. لستَ كذلك لأنه لا فائدة لك من السرقة. لا أدري إن كانت السندات لها تأمين أم لا، لكني أعلم أنّ حضرتك لا تتوفر على تأمين. لذا، أشطب حضرتك من لائحة المشتبه بهم.

- شكراً جزيلاً، قال العجوز بنبرة حادة.

- بالنسبة لي، هذا الرجل - والتفت ليما بهدوء نحوي - ليس في الوضع نفسه. لا يمكنني أن أشك فيه بشكل مباشر. من الواضح أنه لم يكن يستطيع أن ينفِّذ السرقة، لأنه كان في قاعة الأكل عندما وقعت. ما هو أقل وضوحاً هو أنه لم يكن متواطئاً فيها. حضرتك صديق مقرَّب من السيد جوزي آلفش بوربا، ابن هذا الرجل، أليس كذلك؟

- نعم، قلتُ.

ثم قررتُ أن لا أقول شيئاً آخر. وجدت بعد ذلك أنّ أول شيء يجب القيام به مع هذا الشخص هو ألّا نفقد الصبر؛ وثاني شيء، أن نجيب دون تعقيدات.

- إنّ السيد جوزي آلفش بوربا في وضعية مالية ليست بالجيدة. عليه بعض الديون التي يجب أن يسددها في القريب العاجل (هنا رفع المفتش يده وقطع مسبقاً ما لم يتمكن بوربا الأب من قوله) أنبِّهك، سيد بوربا، أنه إن كنت تريد أن تقاطعني لتخيفني، فلن تستطيع ذلك، وإذا كنت تريد أن تقاطعني لتُكَذِّب ما أقول، فعليك أن تفعل ذلك بواسطة وقائع، تتعارض مع الوقائع التي أعرفها، وهي التي أعرضها على حضرتك.

سكت المفتش ليما للحظة. ملأت عيناي العجوز المحجرين حتى كادتا تفيضا عنهما. تابع ليما:

- بالإضافة إلى أن السيد جوزي بوربا الابن عليه ديون كثيرة يجب أن يؤديها قريباً بشكل إلزامي، سبق له أن سرق لأبيه قدراً مالياً من قيمة خمسمائة ألف ريال. يمكن لحضرتك أن تُكذّبني، لكنك ستَكذِب إن فعلت. وقعت هذه السرقة منذ أربع سنوات، وكان ذلك من أجل تسديد ديون قمار في «فِغِيرا دافوشْ»[1]، وهي ديون، بطبيعتها، لم يكن يرغب هذا الرجل في الاعتراف بها لأبيه. الديون الحالية أيضاً هي ديون قمار؛ أظنّ أن الأشخاص المتأدبين يسمونها

(1) منتجع سياحي بالقرب من لشبونة، به عدة ملاهي ليلية وكازينو (المترجم).

ديون الشرف. في هذا الشأن، يمكن لأيّ واحد من حضرتكما أن يكذبني، لأنه من الممكن أن أكون مخطئاً.

لم يتكلم أي واحد منا. ماذا عسانا نقول؟

- مبدئياً، السيد جوزي آلفش بوربا مشتبه به. إنه مشتبه به لأنه سبق واقترف سرقة، وفي حق الشخص نفسه الذي تعرض لتلك السرقة، وهو مشتبه به لأنه يوجد في ظروف تشبه تماماً تلك التي كان يمرّ بها عندما قام بتلك السرقة.

فرك المفتش يديه وحدَّق حيث لا يوجد أيّ أحد.

كانت شمس الصباح الساطعة تُبرز كقطع فضّة صغيرة قطرات العرق المتصبِّب من جبين بوربا الأب. بقي بوربا الأب من غير صوت يعبِّر به عن احتجاجه، ولو كان يرغب في الاحتجاج.

- إنني لا أشير إلى السيد جوزي آلفش بوربا، أضاف المفتش، فوَلّد غياب هذه الإشارة في نفسي رغبة قوية في الضحك - إنني أشير إلى المهندس أوغوستو كلارو، لأنني أتحدث عنه الآن. إنني أدرس فرضية أن يكون هذا الرجل متواطئاً مع جوزي بوربا الابن، لسبب بسيط وهو أنه صديق مقرَّب منه وأن الطريقة التي تمّ بها فتح الصندوق الفولاذي تعتبر من الطُّرق غير المعهودة في البرتغال، لكن مهندساً يمكن أن يستعملها بسهولة، دون أن يكون ذلك بدرجة من التقنية يمكن أن تجعل أي شخص يفكر في عمل من إنجاز مهندس. حضرتك سيد كلارو أوغوستو خرجت لبعض الوقت من قاعة الأكل، لتبحث عن السجائر التي أخذها معه الطالب العسكري باراتا إلى الطابق الثاني، عفواً، الطابق الأول. خلال الوقت الذي كنت فيه

غائباً، كان بإمكان حضرتك بسهولة كبيرة، بالإضافة إلى البحث عن السجائر، أن تربط المفجر - أظنّ أنه يسمى هكذا - بالصندوق الفولاذي وأن تشعل الفتيل وتهيئ كل شيء للانفجار. مباشرة بعد رجوع حضرتك إلى قاعة الأكل، خرج السيد جوزي آلفش بوربا وهو يقول إنه سيذهب لينام. كان بإمكان السيد جوزي آلفش بوربا تماماً أن يذهب ليختبئ وراء أريكة الصالة الصغيرة، وينتظر النتائج، طبعاً بعد أن يسمِّم الكلبين الذين لن ينبحا عندما سيرانه، وبعد أن يترك أبواب البيت مفتوحة، ليتمكن من العودة، ويغلق من الداخل باب المكتب. إنني أسأل حضرتكما بكل موضوعية، أليس كل هذا ممكناً؟

لا أدري إنْ كان من الضروري أن أشرح تلك السلسلة من الارتباكات الذهنية التي داهمتني أثناء عرض هذه الفرضية، والتي كانت محتملة بشكل محيِّر. لحسن الحظ، كان بطء صوت المفتش ليما يسمح بالتفكير. وفعلاً، فكّرت، ووجدت أنه من الأفضل أن لا أبدي دهشتي.

- كل هذا ممكن تماماً، قلتُ، وأنا أشعر بغضب داخلي بسبب صوتي غير الواثق. لكنني لا أؤكد لكم أنه غير صحيح فقط، وهو ما لا يثبت أي شيء، بل أظنّ أنّ من واجب السيد ليما أن يثبت أن ذلك صحيح وليس أن أثبت أنا أنه كذِب. ثم إنني لا أعرف كيف أنفي إثبات فرضيتك. بهذه الطريقة يمكن تصور آلاف الفرضيات التي لا يستطيع أحد أن ينفي إثباتها، والتي هي خاطئة بكاملها، أو على الأقل، تسعمائة وتسعة وتسعون منها خاطئة بالضرورة.

- على أي حال، أردف ليما، كما لو أنني لم أتكلم، أنا لا

أشك في حضرتك. ثم شبك يديه مرة أخرى. لا أشك في حضرتك لأن ما أتوفر عليه من معلومات حولك كافٍ لأعرف أن حضرتك لست قادراً على أن تتواطأ مع أي كان. إنّ حضرتك إنسان مستقل، ومنعزل، ومتحفظ إلى أبعد حد، تعيش حياة تعرف فيها أشخاصاً كثيرين وينعدم فيها الأصدقاء. عدا هذا، لا شيء يوجد ضد حضرتك من الناحية الأخلاقية. إن إنساناً مثل حضرتك لا يصبح متواطئاً مع أي أحد: أولاً، لأنه لا يعاشر أحداً؛ وثانياً، لأنه لا يخاطر من أجل الغير. لقد وسم الانعزال والحذر حياتك إلى حدّ الآن. إنّ الانعزال والحذر يحوْلان دون أن يصير المرء متواطئاً مع الآخر، خصوصاً إذا كانت الاستفادة كلها للآخر، لأن المال سيكون من نصيب بوربا الابن، بل إننا لا نرغب حتى في التغلب على الانعزال والحذر. ألا تجدان حضرتكما أنني أفكر بشكل صحيح؟

ضحكتُ هذا المرة بشكل صريح، ليس فقط للانفراج المفاجئ، بل لأنني وجدتني محشوراً في السؤال. طبعاً، لم يكن المفتش ليما ينتظر أن أجيب. واصل كلامه دون أن يتأخر أطول من صمته المعتاد.

- بعد استبعاد حضرتكما الماثلين أمامي من القضية، سواء كفاعلين أو كمتواطئين، سأنتقل إلى دراسة أشخاص آخرين، وسأبدأ بالسيد جوزي آلفش بوربا، الذي أشرت إليه في بعض الأحيان. (لم يمنعني من الضحك، هذه المرة، سوى الاحترام الذي أكنّه لبوربا الأب والقلق البادي على محياه). بعد تلك المعاملة المالية من قيمة خمسمائة ريال التي سبق أن أشرت إليها، فقد جوزي بوربا الابن الكثير من ثقة أبيه، وهذا شيء طبيعي جداً. المسكين، لم يسبق له

أن تعامل بمبلغ مالي من هذه الحجم؛ كان يتوصل ببعض المال ليسدد شيئاً قبل ساعة أو نصف ساعة، ويذهب ليتسلم بعض القسيمات المالية من لشبونة، أو شيء كهذا، ولم تكن المبالغ كبيرة، لتصلح لأي شيء، بل ولم يكن لديه وقت للسرقة. إذا كان جوزي بوربا الابن يريد أن يسرق أي شيء لأبيه، فقد كان عليه أن يعتمد على طرق مختلفة شيئاً ما، وبما أنها لم تكن المرة الأولى، فقد كان عليه أن يجد أشياء لا تجعله مشتبهاً به. وأنا أضع جانباً ما يمكن أن يظهر من دراسة باقي الأشخاص المحتملين، يبقى السيد جوزي آلفش بوبا هو المشتبه به رقم واحد. إنّ حضرتكما قد توافقاني الرأي على أنني لا أبالغ.

سكت الخطيب قليلاً، ثم التفت بعد ذلك إلى بوربا الأب.

- إن حضرتك تعرف، أو ربما لا تعرف، أن ابنك صديق للسيد مانويل «البدوي»؟

- السيد مانويل «البدوي»؟! انفجر العجوز دون قوة. من أدراني من يكون مانويل «البدوي» هذا؟

لكني رأيت في عينيه المغرورقتين بالدموع الخوف المفاجئ من هذا الاسم المجهول طبعاً وذي الشكل غير المشجع.

- إن مانويل «البدوي» رجل يشتغل، بين مهن أخرى، مصارع ثيران. لكنه أيضاً يتاجر في الأوراق البنكية المزورة.

ارتأيتُ، هذه المرة، أنه من واجبي، أو على الأقل من واجب إحساسي، أن أتدخل دفاعاً عن العجوز المسكين.

- إنني أعلم ذلك جيداً، أجاب المفتش، لكن مانويل «البدوي» ليس متاجراً عادياً في الأوراق البنكية فقط. لقد كان مانويل

«البدوي» يتاجر في أوراق بنكية أجنبية مزورة، هرّبها عند بعض البنوك والصيرفيين. بالإضافة إلى هذا، فإن مانويل «البدوي» (لقد جعلتكم كنيته تكوِّنون عنه فكرة خاطئة[1]) شاب حسن الهيئة، لا يمكن أن يثير استغراب أي شخص يراه في بنك ما يتداول سندات ليست بالغريبة مثل سندات الدين الخارجي.

لَوى ليما يديه بعض الشيء، كما لو أن هذه الحركة تشكل لديه ما يفعله أشخاص آخرون ليستعيدوا أنفاسهم. قاطعتُه هذه المرة، قاطعته غضباً من ذلك الصوت الفاقد للتدرُّج أكثر منه لأي سبب آخر.

- وفكرة فتح الصندوق الفولاذي بواسطة مفجر؟ هل هي فكرة مانويل «البدوي»؟

- ليس ذلك أمراً محتملاً جداً، وابتسم المفتش، لكن من الممكن جداً أن تكون فكرة ليما داش بروكاش الذي، لحسن الحظ، ليس من أقربائي. إنه ينتمي إلى فرقة مانويل «البدوي»، وهو بارع في السطو على المنازل. شارك دون شك في سرقة محل الصياغة في حي شْيادو، وهو بالتأكيد من استعمل مِثْقَباً[2] خاصاً. لدينا اليقين على ذلك في المحكمة، لكن لم تكن لدينا أبداً أدلة كافية، بل إننا لم نستطِع النطق بالحُكم. طيب، يبدو أنّ كلّ هذا يشير إلى أن

(1) تحمل كلمة «سالويو» «Saloio» باللغة البرتغالية مجموعة من المعاني القدحية من بينها: بدوي غير مهذب، إنسان خشن، شخص قليل الأدب (المترجم).

(2) في اللغة البرتغالية، هناك تطابق صوتي ودلالي بين كلمة «Broca» أي المثقب واسم شخصية بروكاش (المترجم).

صاحبنا ليما داش بروكاش رجل على علم بهذه الأشياء. ألا تظنان ذلك، حضرتكما؟

بما أننا لم نُجب، فقد تابع المفتش ليما كلامه.

- يبدو لأول وهلة أنّ حشر أكثر من شخص واحد في قضية يعقِّدها؛ لكن الأمر هو العكس بالضبط، لأن هذا يجعلها أكثر بساطة. إن البراعة التي تمّ بها وضع السندات المسروقة هنا وهنالك، دون أن يُلقى القبض على أيّ أحد أثناء تسليمها، تشير بوضوح إلى عصابة، لأنه لا يوجد أي إنسان بالقوة أو الدهاء الكافيين ليقوم بكل هذا دون أن يفشل. هناك تواطؤ مع أشخاص في بعض البنوك أو المؤسسات البنكية؛ وهو أمر كنا نشك فيه منذ وقت طويل، بخصوص قضايا أخرى لا داعي لذكرها الآن. لهذا بالضبط، تبدي المحكمة اهتماماً خاصاً بهذه السرقة. ثِقْ بي، حضرة السيد بوربا، ليس لدينا أي شيء ضد ابنك، ولا نرغب في أن يُحال على القضاء. كنْ متأكداً من هذا الأمر. إذا كان مسؤولاً، كما يبدو، عن هذه السرقة، أو بما يشير إليها، ما نريده هو أن نتمكن من خلاله أن نصل إلى العصابة التي تقوم بكل هذه الأشياء، ونضع كل أفرادها، أو أكبر عدد منهم، في مكان آمن. لا أتردد في أن أؤكد لكم أنه، لو تمكَّنا من ذلك، لن يحصل شيء لابنك، إلا ما قد يحصل بينه وبين حضرتك. ولن نحيل العصابة على المحكمة، إلا إذا توصلنا بشكاية من حضرتك، وحينئذٍ سيكون على الجميع أن يذهب إلى المحكمة، ابنك وهم أيضاً. ما نريده هو أن نقبض على العصابة، ونسجنهم جميعاً، ثم نعتبرهم متسكعين ونرسلهم إلى أي واحدة من المستعمرات على هذا الأساس.

- لكن، قال بورْبا بصوت لطيف، إنك، سيد ليما، تنطلق من مبدأ أن هناك حجة على اتهام ابني. أرى أن هذا لم يتمّ إثباته.

- نعم، بالتأكيد لم يتمّ إثبات أي شيء. أنا لم أقل إن ابن حضرتك متهم؛ قلت إنه المرشح رقم واحد ليكون مشتبهاً به.

*

التفت المفتش ليما نحوي بطريقته المفاجئة كالعادة.

- عندما ذهبت، يا سيدي، إلى الطابق الأول بحثاً عن السجائر، وجدت الطالب العسكري نائماً، أليس كذلك؟

- نعم وجدته نائماً. . . لكنني أحسست بانكماش قرب معدتي.

- ولم يبدُ لك الأمر غريباً؟

- تسألني لماذا لم يبدُ لي غريباً. لماذا سيبدو لي غريباً؟ إنه ذهب ليطالع دروسه، لكنه استلقى فوق السرير ونام. ما هو الشي غير العادي في هذا الأمر؟

- لأول وهلة، لا شيء، لكن هل تعرف أو لا تعرف أنه عندما يصعد إلى هناك ليطالع دروسه، لا يطالع؟

- لا يطالع؟

- نعم، بدل أن يطالع، يتسلل إلى غرفة الآنسة إليزا، ويتسلى هنالك. هل الأمر هكذا أم لا؟

بقيت مخنوقاً لدرجة أنني لم أتمكن من إيجاد عبارات أدافع بها عن نفسي.

- إذا كنت تعلم، يا سيدي، أنّ الأمر كذلك، لماذا لم تستغرب لكون الشاب ينام في الغرفة، فوق السرير، وبملابسه؟ ولأنه لم يكن مستلقياً؟ إما إليزا، وإما النوم. كان ملقى فوق السرير ونائماً، إيه؟

لكنني فكرت، ووجدت أنه مهما كانت الطريقة - ربما تحقيق على طريقة محاكم التفتيش في صفوف الخدم، الذين غالباً ما يرون أكثر ممّا نظن - فإن ليما على صواب بخصوص علاقة باراتا وإليزا. لذا أجبت بثقة أكبر.

- لا، سيد ليما. لم يكن. لم يكن في الغرفة. كنت أعرف هذا من الآنسة إليزا، لكن، أنت تعرف، هي أمور لا تُقال، ولا يُقال أي شيء يدلّ عليها. عندما ذهبت بحثاً عن السجائر في غرفة باراتا، لم يكن هنالك. كان مع إليزا، بالتأكيد.

- هل كان هناك لأنه كان هناك، أم أنه كان هناك لأنه يجب أن يكون هناك؟

هنا كان الأمر أكثر خطورة.

- هل ذهبت لتتنصت على باب غرفة إليزا؟

- أنا؟ إنه لأمر عجيب!

- إنه كذلك. كل هذا مليء بالأمور العجيبة. يبدو كأنه مزيج من سجن وماخور، لكن، بدأَتْ بعض الأمور تتأكد. سنرى بعد ذلك ما الفائدة منها. ثمة شيء آخر:

*

- تخميني هو كالتالي... إن التوزيع الماهر للسندات بين عدد كبير من البنوك يدل بشكل قاطع على أن الأمر يتعلق بعصابة، وهي عصابة على درجة عالية من المهارة. طيب، من بين كل الأشخاص هنا في البيت، الذين بدأت معهم تحقيقي، الشخص الوحيد الذي وجدتُ أنه يمكن أن تكون له علاقة من هذا النوع هو ابنك. في

الواقع، من الممكن ألا يكون ابنك متورطاً في هذا الأمر؛ لكن، إلى حدّ الساعة، إنها الإشارة الوحيدة التي أتوفر عليها. إذا لم يكن متورطاً، علينا إذن أن نقبل فرضية أن العصابة مكوَّنة بالكامل من الخارج، لكن هناك أمرٌ يدحض هذا: الساعة المبكرة نسبياً لوقوع السرقة. حسب ما حصلتُ عليه من معلومات، كان لا يزال هناك ضوء في غرفتين بالطابق الأول، عندما تفرقع المُفَجِّر. ولربما كان هناك ضوء في غرف أخرى عندما تمّ وضعه. إنها جرأة مبالغة لولا تواطؤ شخص من داخل البيت.

*

- الملاحظة الأولى وهي أن اللص كان يعرف البيت، ويعلم أن عليه أن يسرق من الصندوق الفولاذي وأنه رجل ذو شجاعة كبيرة ودم بارد. إن الطريقة الصاخبة، التي استعملها لفتح الصندوق الفولاذي، والسرعة التي فرّ بها مباشرة، تشكِّل أدلة أكثر من كافية على ذلك الدم البارد وتلك الشجاعة.

أما بخصوص طريقة الفرار، فقد قدم المفتش فييرا ملاحظة تركتنا مثل البلهاء: إذا كان اللص يعرف جيداً البيت والمزرعة، فإنه كان يعلم جيداً أن أسرع طريق للفرار هو باتجاه السور الجنوبي؛ لكن بما أنه استنتج أن الجميع قد يتعقبه في هذا الاتجاه، ربما فرّ في اتجاه آخر، من الأفضل أن يكون الاتجاه المعاكس. هذا ما يفسر اختفاءه التام دون أن يترك آثاراً صوتية لمتعقبيه، وليس سرعته الفائقة. أما الكلبان اللذان ظهرا ميتين في ذلك الاتجاه فإن هذا لا يدل إلّا على أن اللصّ قد دخل من ذلك المكان، وهو ما كان متوقعاً، وليس أنه غادر من هناك.

III. رواية الطريقة التي جرت بها الأحداث حقيقة إلى غاية اللحظة التي كان فيها الراوي ينتظر حلول السنة الجديدة بتخوف

أيّ عالم نفسٍ بسيطٍ قد يستنتج دون صعوبة من الصعقة الجنونية للبستاني أن المسكين كان بريئاً. أظنّ أنّ ذلك ما استنتجه كلّ مَن رأوه سجيناً، لكن نحن كنّا نعلم ما يخفيه هذا الاهتمام البوليسي الظاهر. ولم يكن القلق يفارق وجه الأب بورْبا، وهو يتنبأ بالمستقبل المحتمل لإطلاق سراح جوزي ألْغارْفْيو، والإصرار الخاطئ للمفتش ليما على فرضيته الأساسية السابقة.

تمتم البستاني بعض الأمور، خليط من الاحتجاج، والقلق والأسى. لكنه، في النهاية، وبشكل أوضح، طلب من المفتش إنْ كان بإمكانه أن يتّصل «بشخصين من منطقة الغرب»[1]، قد يهتمان بأمره ويعملان المستحيل كي لا يشعر أنه متخلى عنه. لم تكن هذه هي العبارات التي استعملها، لكن هذا هو معناها. لبى المفتش ليما طلبه بسهولة لطيفة، لاحظت، بعد ذلك، أنها قد أقلقت الأب بورْبا، الذي نظر إليّ بسرعة وأسى. شيئاً فشيئاً، أصبح واضحاً أنّ المفتش ليما لا يُعير اهتماماً لسجن البستاني إلا ليرسل إشارة ربما لآخرين حتى لا يُفاجأوا بما سيأتي.

بحث البستاني مرتعشاً في جيبه عن كُتَيِّب كان يستعمله كحافظة أوراق، وحرّكه كمن يغطي الغبش عينيه ولا يرى جيداً.

– عن أي شيء تبحث؟ سأله ليما.

---

(1) تقع منطقة الغرب «Algarve» في جنوب البرتغال (المترجم).

- عن اسمَي الشخصين اللذين أريد منكم أن تتصلوا بهما لتخبراهما أنني في السجن. أعرف أحدهما، وهو السيد «المستشار». . .

- أي مستشار؟

- السيد المستشار «أمارو غونْسالِفِشْ». لكني لا أعرف عنوانه. . .

- لا تشغل بالك بهذا الأمر. . . نحن نعرف أين يسكن السيد المستشار «أمارو غونْسالِفِشْ»، وسنتصل به لنخبره أنك في السجن.

IV. التحقيق البوليسي الثاني، زيارة الدكتور كْواريشْما، إلى أن وضع يده فوق كتف الراوي

عندما وصلنا أنا، وأبي، والمفتش «فييرا»، يومين بعد ذلك، إلى الطابق الثالث من زنقة «فانكيريوش»، حيث كان يسكن الدكتور كْواريشْما، أخبرتنا صاحبة البيت أن الدكتور لا يزال مريضاً. وعندما سألها «فييرا» إنْ كان ممكناً الحديث معه، أجابت أنّ ذلك ممكن، لأنّ ما به لا يعدو أن يكون حمى قوية، وليس «مرضاً حقيقياً». منذ ثلاثة أيام وهو يقضي يومه في الفراش، أو جالساً، يقرأ أو يدخن. بعد ذلك ذهبت لتخبره بمجيئنا. دقيقتين بعد ذلك، سُمح لنا بالدخول إلى غرفة الدكتور كْواريشْما.

كانت غرفة واسعة، بنافذتين تطلان على الجهة الخلفية للبيت. ونظراً إلى علوّ الطابق، كانت النافذتان تطلان على السطوح من جهة زنقة «فانكيريوش». لذا كانت الغرفة جدّ مضيئة.

لكن الثناء الذي يمكن أن يُقال عن ضوء الغرفة لا يمكن أن

ينطبق على طريقة ترتيبها إلا من باب السخرية. لست في هذا الأمر مدققاً مرضياً، لكن هناك حدود لما هو غير مرتب، وغرفة الدكتور كْواريشْما كانت تتجاوز هذه الحدود. كانت تعطيني الانطباع بأنها [. . .][1] لُعَب غير مرتبة.

رغم أن فكرة الذهاب عند الدكتور كْواريشْما لأحكي له القصة الكاملة للسرقة كانت تزعجني مسبقاً، لم يكن بإمكاني أن أتفادى القيام بذلك بطريقة لائقة. لذا، مستسلماً في هدوء، عرضت عليه، مُلَخِّصاً قدر الإمكان، كلّ الوقائع المُشار إليها في هذه القصة. كما هو مفترض، قمتُ ببعض الحذف: لم أتحدث عن ديون جوزي آلفش، ولا عن قضية الخمسمائة ريال، ولم أذكر شيئاً عن خطاب السيد ليما بدعوى أنّ هذه الأمور هي التي شكَّلت سبب القضية ومنطلقها. لكني، لم أستطع أن أتفادى الحديث عن فرضية الشرطة التي تقول أن هناك عصابة تشتغل، وأن الشرطة تشكّ في أنها تقوم بذلك باتصال مع شخص من داخل مزرعة فِنْياشْ. لو لم أشرح ذلك، لكان القبض على جوزي ألْغارْفيو أمراً غير قابل للفهم؛ ثم إنه كان يكفي أن يهتم به الدكتور كْواريشْما ليكتشف ذلك عند الشرطة.

استمع لي الدكتور كْواريشْما باهتمام كبير لكنه مشتَّت، إنْ صح التعبير. كان يبدو، وهو يصغي إليّ بعينيه، كأنه يسمع صوتاً غير صوتي. أعترف بعبثية هذه الطريقة في التعبير، لكني أنقل انطباع حواسي. في الواقع، كان كْواريشْما يبدو، دون أن يكفّ عن

---

(1) إشارة من الناقذة المحققة لوجود فراغ في مسودة النص الأصلي (المترجم).

الاستماع إليّ باهتمام، كأنه يتابع التطور الداخلي لشيء آخر - تفكير منطقي أو تخمين - له دائماً علاقة بما كنت أرويه.

أنهيت، أخيراً، روايتي، واعتقدت أنني تخلصت من هذا العبء، لكن كْواريشْما، الذي لم يقاطعني أثناء الحكي، بدأ حينئذٍ يسألني. طلب مني أن أقدم وصفاً مفصَّلاً للأشخاص الذين كانوا في البيت لحظة وقوع السرقة؛ لأن وصفي المباشر كان موجزاً. سألني عن أعمارهم، ووضعيتهم المالية، وما إلى ذلك. بدأتُ أشعر بالحرج، خصوصاً عندما كان جوزي آلفش موضوع السؤال. لم يكن بإمكاني أن أقول كل الحقيقة عن جوزي آلفش، لكن أيضاً، ولمجرد إنصاف السجين، لم أكن أستطيع أن أحذف الوقائع بشكل قاطع. بالإضافة إلى هذا، لم أكن جدّ واثق من أنّ الدكتور كْواريشْما، عندما سيتحدّث مع الشرطة بعد ذلك، لن يكتشف أسس الفرضية الأخرى التي قدمها المفتش ليما. فقررت أن أحكي قضية بعض الصعوبات المالية لجوزي آلفش، دون أن أشرح أنّ القمار هو السبب، ودون أن أشير إلى السرقة السابقة.

لكن، في لحظة معينة، بدأت أرتبك، لأنّ الطبيب دخل في الموضوع بطريقة ملتوية. سألني إن كانت العلاقة بين الأب وابنه جيدة دائماً، وهو ما أجبتُ عليه إنه يبدو أنها كانت كذلك، لكن فعل «بدا» في حدّ ذاته كان في نظري محترزاً أكثر من اللازم، فخشيت أن يقدم لكْواريشْما معلومات أكثر ممّا كنت أريد أن أزوِّده بها.

بهذه الأسئلة وغيرها شغلني كْواريشْما، دون أن يسليني، حوالى ساعة ونصف، منذ بداية حديثنا.

نهض، أخيراً، من فوق الكرسي، وتوجّه نحو المشجب حيث علّق قبعته.

- ألا يزعجك أن نخرج؟ سألني. أريد أن أتنزه قليلاً كي أكمل بعض الاستدلالات المنطقية.

- لا، هذا لا يزعجني بتاتاً.

وخرجنا.

نزلنا عبر زنقة «فانكيروش». كانت عشية خريف جميلة. مشينا جنباً إلى جنب، صامتَيْن معاً، وعند نهاية الزقاق، سيراً مع حركات الدكتور كْواريشْما، عرجنا جهة اليمين، نحو «تِرّيرو دو باسو». تقدم الدكتور كوريشما على مهل، يطأطئ رأسه، ويداه دائماً مشبوكتان خلف ظهره، إلى غاية السور الموجود على اليسار. هناك توقف، فتوقفتُ بدوري، ثم تأمل النهر في شرود.

ظلّ كذلك لحظة. بعد ذلك، التفت إليّ بتعبير رصين ومباشر في عينيه المضطربتين قليلاً بطبيعتهما.

- سأخرج «جوزي أَلْغارْفْيو» من السجن، قال، لكن، قبل أن أقوم بذلك، يجب أن أدرس بعناية كيف عليّ أن أتصرف في القضية. إنه لَمِن جميل الصدف أن تكون أنت السيد كلارو مَن بحث عني، لأنني معك أنت بالضبط، يا سيدي، سأقوم بدراسة حلٍّ لهذه القضية. قل لي: هل خطر ببالك مرة أنه يمكن أن يكون جوزي آلفش مشتبهاً به؟

- تسألني هل خطر ببالي؟ لا. كيف يمكن لك سيدي الدكتور كْواريشْما أن تعرف أنه هو، أو يمكن أن يكون هو المشتبه به؟

- استنتجت ذلك من الكلمات التي لم تقلها لي، سيد كلارو -

صمت للحظة - قد يُحزنني أن تفكِّر، يا سيدي، أن جوزي آلفش يمكن أن يكون مشتبهاً به. إنه صديقك، أليس كذلك؟ إذا أخرجتُ جوزي ألْغارْفيو من السجن سيلقون القبض حتماً على جوزي آلفش.

- ربما لن يكون الأمر كذلك، أجبته.

- هذا مؤكد. سيقبضون عليه ويُلقى به في السجن. سينجو «جوزي ألغارفيو» بسهولة، لن يكون بأدنى حاجة إلى مساعدتي. جوزي آلفش هو الذي لن ينجو. هذا مؤسف. أي إنه لن ينجو إذا ما استمرت القضية بين أيدي الشرطة. هناك طريقة وحيدة لإنقاذه: بالقبض على الجاني. طيب، الشرطة عاجزة عن القيام بذلك، لأنها وقعت، منذ البداية، في خطأ كبير، ذلك الخطأ الذي أراد لها الجاني أن تقع فيه.

- وأنت، سيدي الدكتور كُواريشْما، هل تعرف من هو الجاني؟

- أعرف. هل تريد أن أخرج جوزي آلفش من السجن؟

- هذا ما أريد، قلت متردداً، دون أن أفهم ما يترتب عن ذلك.

- لا يمكنني أن أقوم بذلك إلّا إذا وضعت يدي على المجرم الحقيقي.

- إذن، قُمْ بذلك، يا سيدي الدكتور كُواريشْما.

فرّق الدكتور كُواريشْما يديه، مدّ يده اليمنى ولمس كتفي.

*

فرّق الدكتور كُواريشْما يديه خلف ظهره، نظر إليّ بسرعة ومن غير تعبير، ثم مدّ يده اليمنى فجأة ولمس كتفي. ثم عاد إلى الوضعية السابقة، مُشْبكاً يديه خلف ظهره، وعيناه شاردتان في نهر التاج.

مثل فقاعة صابون، انفجرت روحي من دون صوت بداخلي.

بقيت معلقاً بفراغ داخلي، دون تفكير، ومن غير كلام ولا حركة. لو أنّ الدكتور كْواريشْما قال أي شيء، لأجبته بأيّ شيء؛ كنت سأُكيف تفكيري وصوتي مع كلامه، لكن أمام صمته لم أستطع أن أجيب بأيّ شيء. كان تصرفه مثل مقصلة. خلال الفترة الطويلة الممتدة لبضع ثوانٍ حاولت يائساً أن أكوّن موقفاً، كلمة، حركة، أي شيء... لم أستطع... فأدركتُ بعنف حينئذٍ القدرة الكبيرة للإحساس بالذنب على أنفسنا، إذا ما عرفنا كيف نثيره. لو كنت بريئاً لقلت شيئاً ما، لحدث شيء ما. في كلّ جزء من الثانية وأنا صامت يملأ ذنبي الفضاء. مع كل جملة من وعيي بهذا الصمت كان يكبُر عجزي عن الكلام، عن التصرف، والدفاع عن النفس. كانت هزيمتي كاملة. عند نهاية تلك الثواني المعدودة أقررتُ بكل ذلك.

نحّى الدكتور كْواريشْما نظره عن نهر التاج، لكنه لم يقع عليّ. أدار ظهره للنهر وقال لي بنبرة مَنْ لم يقُل في السابق شيئاً ذا وزن: «ماذا لو ذهبنا الآن؟». ثم، بعد أن تقدَّم هو نحو قوس شارع «أوغوستا»، تقدّمت في صمت إلى جانبه، مدفوناً في ذاتي تحت تهمة نهائية لم يتمّ النطق بها.

عند وسط الساحة، أدار الدكتور كْواريشْما وجهه نحوي، دون أن يدير عينيه، وقال:

- ماذا تنوي القيام به؟

تملَّكتني رغبة كبيرة لأبكي، ولأطلب منه العفو، منه هو الذي لم أذنب في حقه. للحظة لم أقوَ على الكلام. بعد ذلك سمعتُ صوتي يقول له: «لا أدري». ثم أردفت بعد لحظة:

- دكتور، يمكنك أن تقول ما تشاء.

حينئذٍ نظر إليّ الدكتور كْواريشْما بملء عينيه، ثم قال لي بكل بساطة:

- ليس لدي ما أقوله لك. كما فهمتَ، قمتُ بفك رموز قضيتك. يمكنني القول إنني فككت رموزها بسهولة كبيرة. البقية تهمّك أنت.

V. تفسير الدكتور كْواريشْما

«إن القضايا»، قال الدكتور كْواريشْما «سواء كانت» ألغازاً، أو مسائل شطرنج، أو تعقيدات الواقع، أو أياً كانت، تنتمي بالضرورة إلى واحدة من الفئات الثلاث: هناك، أولاً، القضايا التي يكون البحث الرئيس فيها عن السبب، بعد ذلك، هناك القضايا التي يكون البحث الرئيس فيها عن الغاية؛ وأخيراً، لدينا القضايا التي يكون البحث الرئيس فيها عن الوسيلة. قضية كالتي سنعالجها، والتي يدور موضوعها عن اكتشاف مَن قام بسرقة معينة، تنتمي إلى الفئة الأولى، لأنّ ما نبحث عنه هو المجرم، والمجرم، كما قد يقول فلاسفة الكلام، هو **العلّة الفاعلة** للسرقة. لا يتعلق الأمر بمعرفة الغاية، لأن الغاية من أي سرقة هي أن يستحوذ الشخص على ما سرقه.

(1) قضايا **لها ظروف**.

(2) قضايا علينا أن نحدد أولاً ظروفها، وبعد ذلك كيف جاء الحل.

أول فئة من **الوقائع** هي **ظروف** القضية؛ هكذا، عندما يتعلق الأمر بمسألة في لعب الشطرنج، الوقائع الأولى المؤكدة هي حركات القطع، التي تخضع **لقواعد** معينة.

*

«إن معيار التحقيق الذي أعتمده، لأنني أجده الأكثر عقلانية من بين كلّ المعايير، هو أن أقسم التحرّي الأوليّ إلى ثلاث مراحل. تتعلق المرحلة الأولى بتحديد الوقائع غير القابلة للجدل، تلك التي لا تقبل أي جدل إطلاقاً، بإقصاء كلّ العناصر التي ليست كذلك، أو لا يوجد يقين مباشر حولها، أو لكونها استنتاجات - ربما منطقية، ربما لا محيد عنها - استُنبطت من هذه الوقائع، لكنها تبقى، على كل حال، استنتاجات وليس وقائع. سأسوق مثالاً لأُبَيّن بوضوح ما أقصد بهذه الملاحظات. لنفترض يوماً ماطراً وأنا في البيت. يظهر لي شخص يقطر هندامه ماء. من الطبيعي أن أفكر: «هذا الرجل مشى تحت المطر ولذلك فقد تبلل»، لكن، من المحتمل أنه لم يمشِ تحت المطر، وأن أحداً صبّ عليه الماء هنا داخل البيت. معظم الناس قد يعتبرون واقعة أن الرجل مشى تحت المطر. في النهاية، هذا استنتاج - إنه استنتاج طبيعي، لكنه استنتاج، أو استنباط. لو أنني كنت عند النافذة، ورأيت هذا الشخص يأتي هناك في الخارج عبر الشارع تحت مطر شديد، لكان من الممكن، طبعاً، أن يتمّ تعويض بلل المطر بأيّ أمر آخر، لكن شيئاً من المطر كان سيبلل الرجل، ولكان بإمكاني أنا، في كل الأحوال، أن أؤكد أن الرجل مشى تحت المطر. حينئذٍ، سيكون هذا الأمر واقعة.

«والحال أنه في قضية سرقة مزرعة فِنْياشْ، هناك وقائع تبدو غير قابلة للجدل (أقول «تبدو»، لأنها تعتمد على شهادات يمكن أن تكون باطلة، عن قصد أو عن غير قصد). هذه الوقائع هي: حوالى منتصف الليل من يوم... من شهر سبتمبر حدث انفجار بالديناميت في قفل الصندوق الفولاذي في مكتب مزرعة فِنْياشْ؛ وأن هذا

المكتب والقاعة المجاورة كانا مغلَقَين من الداخل، بينما كانت نافذة القاعة مفتوحة، وقُتل كلبان بالسم؛ وتمّ التأكد لحظتها أنه قد اختفت من الصندوق المنسوف بعض السندات (مائة) من الديون الخارجية للبرتغال، من السلسلة الأولى، كانت توجد به؛ ولم يوجد أثر لأي مشتبه به خلال البحث الذي تمّ مباشرة بجوار البيت؛ إن السندات المسروقة، بعد التأكد من أرقامها من خلال لائحة أرقام كانت بحوزة مالك السندات، تم تداولها في السوق البنكي دون أن يتمّ حجز أي سند منها أثناء التداول. إذا تحدثنا عن وقائع، أي مجرد وقائع، هذا كل ما يوجد منها. وغير هذا، مهما كانت محاولة اعتباره واقعة، فهو ليس إلا مجرد استنتاج.

«بعد إثبات الوقائع غير القابلة للجدل، نصل إلى المرحلة الثانية من التحقيق. تتجلى هذه المرحلة في ما يأتي: الكشف عن الفرضية التي تربط وتشرح بشكل كامل الوقائع غير القابلة للجدل، لكن، بعد الكشف عن هذه الفرضية، يجب البحث في أن فرضيات أخرى أيضاً، رغم ضعف احتمالها ظاهرياً، تتطابق مع مجموع الوقائع نفسها. وتُحَدَّدُ هذه الفرضيات بطريقة بسيطة: بعد الكشف عن الفرضية الأكثر احتمالاً، تُحدَّد بعد ذلك الفرضية المناقضة لها ويتمّ التأكد من درجة احتمال هذه الفرضية المناقضة. بعد إثبات كل هذا، يمكن الانتقال إلى الفرضيات الأخرى، أي تلك الفرضيات التي توجد في مرتبة وسطى، بين الفرضية الأكثر احتمالاً ونقيضتها، ثم يتمّ التأكد من احتمالاتها جميعاً واحدة تلو الأخرى.

«في القضية التي نعالجها، الفرضية الأكثر احتمالاً في الظاهر هي تلك التي قبلها الجميع مباشرة، بشكلٍ غريزي، ووجدوها ممكنة

جداً لدرجة أنهم اعتبروها واقعة وليس فرضية أو استنتاجاً. هذه الفرضية هي أنّ السرقة كانت من تنفيذ شخص أو أشخاص، غرباء عن مزرعة فِنْياشْ، دخلوا البيت خلسة، بعد أن قدَّموا السم للكلبين، وضعوا المتفجرات، اختلسوا السندات ولاذوا بالفرار بعد ذلك، بسرعة كانت كافية كي لا يراهم أحد. بعد معرفة هذه الفرضية، نحدِّد الفرضية النقيضة. الفرضية النقيضة هي أن السرقة لم تكن من تنفيذ غرباء، وأنه لم يتوفر أي واحد من الظروف الظاهرة المشار إليها سابقاً. هذا ما يشكل، حسب ما يبدو، الفرضية النقيضة.

«إذن، أي احتمال يمكن أن يقترن بهذه الفرضية النقيضة؟ كافتراض أكثر احتمالاً، أكثر قرباً من الجميع، أن السرقة كانت من تنفيذ غرباء، وفي الظروف المشار إليها، ستكون الفرضية النقيضة ممكنة التحقق في حالة واحدة فقط: إذا كانت هناك نية في اصطناع تنفيذ هذ السرقة من طرف غرباء. في هذه الحالة، تكون الفرضية النقيضة محتملة، وتعادل في احتمالها الفرضية الأولى والطبيعية.

«إننا، إذن، أمام فرضيتين محتملتين، بينهما تناقض. فأيهما أكثر احتمالاً؟ علينا أن نفكر في ذلك على ضوء فحص الظروف المباشرة للسرقة، أي بالنظر إلى أولاً: مكان السرقة، ثانياً: ساعة تنفيذ السرقة، ثالثاً: طبيعة المسروقات، رابعاً: طريقة السرقة، خامساً: طريقة توزيع السندات في سوق البورصة. هذه هي العناصر المادية الخمسة المباشرة للحادث.

«بالنسبة إلى مكان السرقة، ليس هناك من أمرٍ يستحق الفحص. الصندوق الفولاذي كان هناك، وهناك كان يجب أن يُفتح في كلّ الأحوال. في ما يخصّ ساعة السرقة، سيكون أكثر غرابة لو كانت

السرقة من تنفيذ غرباء من أنها عمل قام به شخص من داخل البيت. بعد الدخول إلى البيت، سيترك اللص الغريب ما يكفي من الوقت يمرّ حتى يكون لديه اليقين، أو الاحتمال الأكبر أن الجميع قد ناموا. لماذا سيشرع في التنفيذ مباشرة، إذا لم يكن يعلم أن أحداً بقي في الأسفل؟

«يمكن النظر إلى مكان السرقة من زاويتين: المكان في حدّ ذاته، واختيار المكان لتنفيذ السرقة؛ أي أنّ السرقة نُفذت في مكتب مزرعة فِنْياشْ، وأن يكون بيت مزرعة فِنْياشْ المكان المختار لتنفيذ السرقة. فأما كون السرقة نُفذت في مكتب مزرعة فِنْياشْ، لا غرابة في ذلك لأنّ الصندوق الفولاذي يوجد هناك، وبالتالي فإنّ السرقة ستحدث هناك. أما بخصوص اختيار مزرعة فِنْياشْ كبيتٍ للسرقة، فإنّ الأمر يختلف. أيُّ احتمال كان بأن سرقة الصندوق الفولاذي الموجود في مزرعة فِنْياشْ كانت أكثر جدوى من سرقة أي صندوق فولاذي آخر؟ أي احتمال من هذا القبيل كان لدى الغرباء؟ مَن يملك هذه المهارات والطرق في السرقة كما تمّ في هذه الحالة، لماذا سيختار مزرعة فِنْياشْ في الوقت الذي يستطيع، دون إضاعة لمهارته، ودون مجازفة، أن يحصل على منافع أكبر لو هاجم نقطة أخرى؟ في هذه الحالة، إذن، الاحتمال المرجَّح يميل إلى صالح شخص ليس بغريب عن البيت؛ باستطاعته أن يسرق هذا الصندوق الفولاذي لأنه لم يجد صندوقاً آخر - وهو سبب كافٍ وواضح - فاضطر لاصطناع سرقة من تنفيذ شخص غريب ليُبعد انتباه أشخاص من داخل البيت، يمكن أن يكون هو من بينهم.

«لنتحدث الآن عن ساعة السرقة. . . بالنسبة إلى الغرباء، هذه الساعة هي الأكثر إثارة للدهشة من الساعات التي يمكن تصورها، لكن، بالنسبة إلى شخص من داخل البيت، يرغب في اصطناع سرقة ينفذها غرباء، هذه الساعة هي التي سيقع عليها اختياره بالضبط. كان الكل تقريباً نائماً، لكن كان لا يزال شخصٌ مستيقظاً. لم يكن ما يكفي من الأشخاص المستيقظين كي يخاطر بمصادفة أحدهم وهو يهيئ أشياء لتنفيذ الاصطناع؛ لكن كان ما يكفي منهم ليحدد ساعة – في هذه الحالة، الساعة المزعومة – السرقة وليعطي الإشارة بأنّ السرقة قد نفِّذت.

«طبيعة المسروقات. . . لو أنّ السرقة كانت من تنفيذ غرباء، لكانوا سيسرقون السندات أو كانوا سيكتفون بما سيجدون. إنّ فرضية كونهم كانوا يتصرفون بمحض الصدفة تدحضها طبيعة السرقة؛ والطريقة التي تمّ بها ترويج المسروقات، بعد ذلك، يبدو أنها تنمّ عن استعداد قبلي لحيازتها.

*

«في أي بحث عن واقعة، نجهل طبيعتها ونريد معرفة مرتكبها والكشف عن هويته، ما يهم، قبل كل شيء، هو أن نعزل منها أي عنصر، مهما كان غير قابل للشك، يكون غير متوقع أو غريب أيضاً. هذه السرقة تتوفر على عنصرين غير متوقعين وغريبين: ظروف السرقة، والتمكن من ترويج السندات دون مصادفة أي صعوبات تُذكر. لذا، يُستحسن أن نبدأ البحث انطلاقاً من إحدى هاتين الواقعتين.

«لكن، بعد عزل الوقائع التي لا يمكن الشك فيها، والتي هي

غريبة، (طبعاً، مع احتمال أنّ هناك أكثر من واحدة)، سنختار، من أجل بداية حقيقية للتحقيق، واحدة من تلك الوقائع تكون أقل إثارة للتأويلات، أي تلك التي تبدو أكثر غموضاً. إذن، تداول السندات أمر مثير للعديد من التأويلات؛ ربما كان هناك تواطؤ من طرف أيّ شخص في البنك أو البورصة؛ ربما كان هناك خطأ في لائحة السندات؛ ربما وقع تبادل للأسهم دون أن يتمّ التأكُّد من عملية التبادل، أو من الأرقام، لكن لا توجد عدّة فرضيات مقبولة حول ظروف السرقة في حدّ ذاتها. هناك مجرد غرابة.

«نعم. لقد تمّ تنفيذ السرقة، حسب ما يبدو، بطريقة صاخبة وفي وقت ليس بالباكر ليكون نهاراً ولا بالمتأخر حتى يتمّ التأكد من أنّ الجميع قد خلد للنوم في البيت، وبالفعل لم يكونوا جميعاً نائمين. مع أنه كان من الممكن فتح الصندوق الفولاذي بعدّة طرق لا تُحدِث صخباً، تمّ اختيار طريقة تُحدث صخباً بالضبط؛ وهي بالإضافة إلى ذلك طريقة غير مألوفة. النتيجة أنه وقع الاختيار على طريقة غير مألوفة لأنها لم تكن ضرورية وتُحدث إنذاراً - وهي بالضبط الأسباب العكسية التي قد تدفع إلى اختيار طريقة غير مألوفة. إنّ نية سرقة السندات واضحة، أولاً لأن الطريقة الغامضة التي تمّ بها تداول السندات يمكن، مهما كانت طبيعتها، أن تكون موضوع تحضير قبلي؛ ثانياً، بما أنّ السرقة كانت من تنفيذ أشخاص من داخل البيت، لم يكن هناك وقت لسرقة شيء آخر غير السندات.

«إذن، هذه الظروف تقودنا إلى استنتاج: إن الطريقة التي نُفذت بها السرقة استُعملت بالضبط لتحدث إنذاراً. ولكن، لا يُطلق الإنذار إلّا لغرض ما: للتمويه حول ساعة السرقة. وإذا اعتبرنا أن طريقة

السرقة - انفجار بواسطة فتيل - كانت من إعداد شخص لتُحدث نتيجة عندما لا يكون هذا الشخص حاضراً، نصل إلى استنتاج لاحق: إنّ السرقة لم تنفذ بواسطة انفجار الديناميت. وإذا لم يكن كذلك، فإنها قد تمت بواسطة مفتاح مزوَّر، وإذا كان الأمر كذلك، فإنّ السارق شخص من داخل البيت أراد بواسطة الانفجار أن يوهم الآخرين بأن مَن نفَّذ السرقة هو شخص من خارج البيت، لكن، لو أنّ هذا الشخص أراد أن يوهم بأنّ مَن سرق ليس هو، لكان عليه أن يُكمل مسرحيته بأن يحرص على أن يوجد في مكان يراه فيه الآخرون وقت الانفجار ليضمن بذلك لنفسه إثبات غيبة كافٍ. لحظة الانفجار كان الجميع نائمين إلّا شخصين: بوربا الأب وحضرتك. وبما أنه هو صاحب السندات، فإن الشبهة الأولى تقع على حضرتك.

«ولتتأكد الشبهة، أو لتتأكد أكثر، علينا أن نرى إن كنت حضرتك قبيل الانفجار قد خرجت تحت أي ذريعة من قاعة الأكل وتأخرت كثيراً لتهيئ المسرحية. نعم، لقد خرجت تحت ذريعة مباشرة - وهي أنك تركت علبة السجائر في غرفة الطالب الضابط - وتأخرت ما يكفي من الوقت لتعدّ المخطط بكامله، وهو ما يتطلب بضع دقائق بالنسبة إلى مَن درس كلّ شيء من قبل ويتصرف بسرعة»».

*

«لكن، وماذا عن الكلبين!»، ردَّد أبي. «إن الكلبين لم ينبحا!...».

لقد نسي الكلبين - ولماذا نسيهما؟ لأنه درس الخطة الخاطئة للسرقة من **داخل البيت نحو الخارج**. بما أن الكلبين كانا موجودين **خارج مجال خطته**، فقد نسيهما بالطبع.

لا توجد خلاصة كاملة، لأنه لا وجود لتحليل كامل. لذا فإن المجرمين، كما يُقال من زمان، دائماً ما ينسون أي جزئية أثناء التخطيط للجريمة أو أثناء تنفيذها.

*

- أتساءل أحياناً إنْ لم تكن علاقة [...] الغرامية بأختنا مجرد خطة للدخول إلى البيت، أو أنها، أيضاً، موقف للانسحاب إذا كانت هناك حاجة إلى ذلك؛ إنْ لم يكن قد استعمل مشاعر الفتاة نفسها لتفادي المحاكمة في حالة انكشاف أمره [...]. طرحت مرة المسألة على الدكتور كْواريشْما الذي كان صدفة في أحد أسوء أيامه، فلم يعرف كيف يحلّها.

- أن يكون ممكناً، هذا ممكن. مع شخص خبيث من هذه الطينة ليس ذلك أمراً مستحيلاً، ليس كذلك. وأفكر في أنني لم أتمكن شخصياً من معرفته! ثم صمت في حزن.

البنكي الفوضوي[1]

---

(1) كتب بيسوا هذه القصة ونشرها في مجلة *Contemporânea* سنة 1922. وقد عرف النص منذ ذلك الوقت عدة صيغ وتعديلات من طرف النقاد والمحققين. اعتمدنا في هذه الترجمة على الصيغة التي أنجزتها الباحثة والمحققة البرتغالية مانويلا بيريرا دا سيلفا وصدرت سنة 1999 (المترجم).

كنا قد انتهينا من تناول العشاء. قبالتي، كان يجلس صديقي البنكي، تاجرٌ كبير ومحتكر متميِّز، يدخن كمن لا يفكِّر. كان الحوار الذي بدأ يخفت ينطرح ميتاً بيننا. حاولتُ أن أحييه، صدفة، معتمداً على فكرة خطرت ببالي. التفتُّ نحوه، مبتسماً.

- لقد أخبروني أنك كنت فوضوياً فيما مضى... هل هذا صحيح؟

- نعم، كنت فوضوياً وما أزال. لم أتغير بهذا الخصوص. إنني فوضوي.

- هذا غريب! أنت فوضوي! في أي شيء أنت فوضوي؟... إلا إذا كنت تعطي لهذه الكلمة أي معنى آخر مختلف...

- مختلف عن المألوف؟ لا، لا أعطيها معنى مختلفاً. إنني أستعمل الكلمة بمعناها المألوف.

- يعني، إذن، أنك فوضوي تماماً بالمعنى نفسه الذي يُطلق على هؤلاء الأشخاص الفوضويين الذين ينتمون إلى المنظمات العمالية؟ أي، إنه لا فرق يُذكر بينك وبين النقابات وهؤلاء الأشخاص الذين يستعملون القنابل؟

- فرق؟! إذا تحدثنا عن الفرق،... هناك فرق طبعاً، لكن

ليس ما تظن. هل تشكّ ربما أن نظرياتي الاجتماعية تشبه نظرياتهم؟

- آه، فهمت! أنت فوضوي، على مستوى النظريات، أما على مستوى الممارسة. . .

- إنني فوضوي بالقدر نفسه على مستوى النظريات والممارسة. أما على مستوى الممارسة، فأنا فوضوي أكثر من هؤلاء الأشخاص الذين ذكرتهم. حياتي بكاملها تدلّ على ذلك.

- كيف؟

- حياتي بكاملها تدلّ على ذلك، يا بنيّ. ما يحدث هو أنك لم تُعِر أبداً اهتماماً واضحاً لهذه الأمور. لذا يبدو لك أنني أقول حماقة، أو أهزأ منك.

- يا رجل، إنني لا أفهم شيئاً!. . . إلا إذا. . . إلا إذا كنت ترى أن حياتك منحلّة ومناهضة للمجتمع وتُسقِط هذا المعنى على الفوضوية. . .

- لقد قلت لك لا - أي، لقد قلت لك إنني لا أعطي لكلمة فوضوية معنى مختلفاً عن المألوف.

- طيب. . . ما زلت لم أفهم. . . يا رجل، هل تريد أن تقول إنه لا يوجد فرق بين نظرياتك الفوضوية الحقيقية وممارستك في الحياة - كيف هي ممارساتك في الحياة الآن؟ هل تريد أن أصدق أن حياتك تشبه تماماً حياة أولئك الأشخاص الفوضويين العاديين؟

- لا، ليس هذا. ما أريد أن أقول هو أنه لا يوجد أي اختلاف بين نظرياتي وممارستي للحياة، بل إن بينهما تطابقاً تاماً. حياتي ليست مثل حياة الأشخاص الذين ينتمون إلى النقابات والأشخاص الذين يستعملون القنابل، هذا صحيح، لكن حياتهم هم هي التي

توجد خارج الفوضوية، خارج مثلهم العليا. حياتي ليست كذلك. أما بالنسبة لي أنا - بنكي، وتاجر كبير، ومحتكر، إن شئت - بالنسبة لي، نظرية وممارسة الفوضوية توجدان متحدتين ومتناسبتين. لقد قارنتني بهؤلاء الأشخاص الأغبياء الذين ينتمون إلى النقابات والأشخاص الذين يستعملون القنابل لتشير إلى أنني مختلف عنهم. إنني كذلك، لكن الفرق هو أنهم (هم وليس أنا) فوضويون على المستوى النظري فقط؛ أما أنا فإنني فوضوي على مستوى النظرية والممارسة. هم فوضويون وبلداء، وأنا فوضوي وذكي. أي، إن الفوضوي الحقيقي، يا صديقي، هو أنا. إنهم - أولئك الذين ينتمون إلى النقابات والأشخاص الذين يستعملون القنابل (أنا أيضاً كنت هناك وخرجت بفضل فوضويتي الحقيقية) - زُبالة الفوضوية، إناث النظرية الكبيرة للحرية المطلقة.

- هذا أمر لن يخطر حتى على بال الشيطان! هذا مدهش! كيف يمكنك أن تجمع بين حياتك - أريد أن أقول حياتك البنكية والتجارية - والنظريات الفوضوية؟ كيف تجمع بينهما إذا كنت تقول إنك تعني بالنظريات الفوضوية ما يعنيه بالضبط الفوضويون العاديون؟ ثم إنك، فوق كل هذا، تقول لي إنك مختلف عنهم لأنك أكثر فوضوية منهم - أليس كذلك؟

- تماماً.

- إنني لا أفهم شيئاً.

- لكن، هل أنت مصرّ على أن تفهم؟

- كل الإصرار.

سحب من فمه السيجارة، التي انطفأت؛ أشعلها مرة أخرى

ببطء؛ حدّق في عود الثقاب الذي كان ينطفئ؛ وضعه بلطف في المنفضة؛ بعد ذلك، قال، وهو يرفع رأسه الذي ظلّ مطأطأً للحظة:

- اسمع. نشأت مع عامة الناس من الطبقة العاملة في المدينة. لم أرِثْ من الأشياء الجيدة، كما قد تتصور، لا الأحوال ولا الظروف. لم يحدث سوى أنه كان لي ذكاء ثاقب بشكل طبيعي وإرادة قوية، لكن، هذه مواهب طبيعية، لم يكن يستطيع منشأي المتواضع أن يحرمني منها.

«كنت عاملاً، اشتغلت، وعشت حياة عسيرة؛ كنت، باختصار، ما كان عليه معظم الناس في ذلك الوسط. لا أقول إنني عانيت من الجوع في الواقع، لكني كنت قريباً من ذلك. ثم، إنّ هذا الأمر كان ممكناً، وهو ما لا يغير شيئاً ممّا حصل بعد ذلك، أو ممّا سأعرضه عليك، أو ما كانت حياتي، أو ما هي عليه الآن.

«خلاصة القول، إنني كنت عاملاً عادياً؛ أعمل، مثل الجميع، لأنه كان عليّ أن أعمل، وكنت أنجز أقلّ عمل ممكن. في الواقع، كنت ذكياً. كلما استطعت، كنت أقرأ أموراً، وأناقش أخرى، وبما أنني لم أكن بليداً، تولّد لدي عدم رضى قوي وتمرد جامح ضد مصيري وضد الظروف الاجتماعية التي تجعله كذلك. كما قلت لك من قبل، كان يمكن لمصيري أن يكون أفظع ممّا كان؛ لكن في ذلك الوقت كان يبدو لي أنني كنت كائناً قدَّم له القدر كل أشكال الظلم مجتمعةً، واستغلّ الأعراف الاجتماعية ليصنعها لي. كان ذلك حوالى سن العشرين - واحد وعشرون على أكبر تقدير - عندما أصبحت فوضوياً.

توقفت لحظة. التفت إليّ. ثم تابع، وهو ينحني بعض الشيء.

- كنت متبصراً دائماً، تقريباً. شعرت بالتمرد. أردتُ أن أفهم تمردي. أصبحت فوضوياً عن وعي واقتناع - أصبحت ذلك الفوضوي الواعي والمقتنع الذي هو أنا اليوم.

- والنظرية التي لك اليوم، هل هي النظرية نفسها التي كانت لك في ذلك الوقت؟- نفسها. النظرية الفوضوية، الحقيقية، ليست إلا واحدة. لدي النظرية نفسها التي كانت لي منذ أن أصبحت فوضوياً. سترى... كما قلت، بما أنني كنت متبصراً بشكل طبيعي، فقد أصبحت فوضوياً واعياً، لكن، ما هو الفوضوي؟ إنه متمرد ضد الظلم المتمثل في أن نولد غير متساوين **اجتماعياً** - في الواقع، هذا كل ما في الأمر. ومن هنا ينشأ، كما نرى، التمرد ضد الأعراف الاجتماعية التي تجعل اللامساواة ممكنة. إن ما أشير إليه الآن هو المسار النفسي، أي كيف يصبح المرء فوضوياً؛ وهو ما يقودنا لنرى الجانب النظري للموضوع. بصورة مؤقتة، عليك أن تفهم جيداً تمرد شخص ذكي مثلي في الظروف التي كنت أعيشها. ماذا يرى في العالم؟ هناك من يولد ابن مليونير، محمياً منذ المهد ضد تلك المصائب - وهي ليست بالقليلة - التي يمكن للمال أن يردّها أو يخفف منها؛ وهناك من يولد بَئساً، ليكون منذ طفولته فَماً آخر ضمن أسرة تزيد فيها عن اللازم الأفواه التي تنتظر الطعام الممكن. هناك من يولد بلقب كونْت أو مرْكيز، فيحظى باحترام كل الناس، مهما صدر عنه من فعل؛ وهناك من يولد مثلي، وعليه أن يكون مستقيماً مثل فادِن ليحظى بمعاملة كإنسان على الأقل. ومن الناس من ينشؤون في ظروف تسمح لهم بالدراسة، والسفر،

والتعلم، ليصبحوا (يمكن أن نقول ذلك) أكثر ذكاء من آخرين هم أذكياء بطبيعتهم. وهكذا في كل الأمور...

«إننا لا يمكن أن نتفادى ظلم الطبيعة، لكن ظلم المجتمع والأعراف - هذا الظلم، لماذا لا نتفاداه؟ إنني أقبل - ليس لي بد من ذلك - أن يكون إنسان أفضل مني نظراً إلى ما منحته الطبيعة: الموهبة، والقوة، والطاقة؛ لا أقبل أن يكون أفضل مني بصفات مصطنعة، لم يخرج بها من بطن أمه، بل حصلت له صدفة عندما خرج: الغنى، والوضعية الاجتماعية، والحياة الميسورة... إلخ. من هذا التمرد الذي أعرضه عليك في هذه التأملات تولَّدت فوضويتي آنذاك، وهي، كما قلت لك، الفوضوية نفسها التي أحتفظ بها إلى اليوم دون تغيير.

سكت للحظة مرة أخرى، كأنه يفكر كيف سيواصل حديثه. دخن وأطلق الدخان ببطء، في الجهة المقابلة لي. التفت وكان يستعد لمتابعة كلامه. لكني قاطعته.

- لدي سؤال، من باب الفضول... لماذا أصبحت فوضوياً بالضبط؟ كان بإمكانك أن تصبح اشتراكياً، أو أي شيء تقدمي لا يذهب بك بعيداً. كل هذا كان ضمن تمردك... أستنتج مما قلتَ أنك تعني بالفوضوية (وأظن أنه تعريف جيد للفوضوية) التمرد ضد كل الأعراف والقوالب الاجتماعية والرغبة في هدمها كاملة والاجتهاد في ذلك.

- هذا بالضبط.

- لماذا اخترت هذه الطريقة القصوى ولم تختَرْ أي طريقة أخرى... من الطرق الوسطى؟...

- سأشرح لك. لقد فكرت ملياً في كل هذا. طبعاً، كنت أرى في المناشير التي كنت أقرأها كل هذه النظريات. اخترتُ النظرية الفوضية - أي النظرية القصوى، كما تقول جيداً - للأسباب التي سأشرحها لك في كلمتين.

حدّق للحظة في الفراغ. بعد ذلك، التفت إليّ.

- إن الشر الحقيقي، والوحيد، هو الأعراف والأوهام الاجتماعية التي تتداخل مع الحقائق الطبيعية، كل شيء، من الأسرة إلى المال، ومن الدين إلى الدولة. إن الإنسان يولد رجلاً أو امرأة، أي إنه يولد ليصير عندما يكبر، رجلاً أو امرأة؛ إن المرء لا يولد، بحكم العدالة الطبيعة الجيدة، لا ليصير زوجاً، ولا ليكون غنياً أو فقيراً، كما لا يولد ليصير كاثوليكياً أو بروتستانتياً، أو برتغالياً أو إنجليزياً، لكن، لماذا هي سيئة هذه الأوهام الاجتماعية؟ **لأنها أوهام، لأنها ليست طبيعية**. إن المال سيئ سوء الدولة، وتكوين الأسرة سيئ مثل الديانة. لو وُجدت أوهام أخرى غير هاته لكانت سيئة مثلها، **لأنها ستكون أوهاماً بدورها**، لأنها ستتداخل مع الحقائق الطبيعية وستشوش عليها أيضاً، لكن، أي نظام غير النظام الفوضوي المحض، يريد هدم كل الأوهام وكل واحدة تماماً، **هو وهم أيضاً**. أن نوظف كل رغبتنا، كل مجهوداتنا، كل ذكائنا لنفرض، أو لنساهم في فرض وهم اجتماعي عوض وهم آخر، أمرٌ عبث، إنْ لم يكن جريمة، **لأن ذلك يعني خلق بلبلة اجتماعية هدفها الصريح هو أن تترك كل شيء كما كان**. إذا كنا نرى أن الأوهام الاجتماعية غير عادلة، لأنها تسحق وتقهر ما هو طبيعي عند

الإنسان، لماذا سنوظف مجهودنا لنعوّضها بأوهام أخرى، إذا كان بإمكاننا أن نوظف المجهود ذاته لنحطمها كاملة؟

«كل هذا يبدو لي مقنعاً، لكن لنفترض أنه ليس كذلك؛ لنفترض أنهم يردون علينا بأنّ كل هذا صحيح، لكن النظام الفوضوي غير قابل للتحقيق في الممارسة. سنفحص هذا الجانب من المسألة.

«لماذا لا يمكن أن يكون النظام الفوضوي قابلاً للتحقيق؟ نحن التقدميون جميعاً ننطلق من مبدأ أن النظام الحالي ليس غير عادل فحسب، بل إنه من المفيد تعويضه، لأنّ هناك عدالة، بنظام أكثر عدلاً. إذا لم نفكر بهذا الشكل، لن نكون تقدميين، بل بورجوازيين، لكن، من أين يأتي معيار **العدالة**؟ يأتي مما هو **طبيعي وحقيقي**، في مقابل الأوهام الاجتماعية وأكاذيب العُرف. طيب، ما هو طبيعي يكون كذلك لأنه طبيعي بالكامل، ليس لأنه نصف طبيعي، أو ربع طبيعي، أو ثُمن طبيعي. جيد، لكن، هناك شيء من اثنين: أن يكون ما هو طبيعي قابلاً للتحقيق اجتماعياً أو لا يكون؛ بعبارة أخرى، أن يستطيع المجتمع أن يكون طبيعياً، أو أن المجتمع وهم في جوهره ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون طبيعياً. إذا كان يمكن أن يوجد مجتمع طبيعي، أو حر، وهذا ممكن، سيكون هو المجتمع الطبيعي الكامل. إذا لم يستطع المجتمع أن يكون طبيعياً، إذاً (لأي سبب من الأسباب) اضطر ليكون وهماً بالقوة، فليكن من الضرر أقله؛ ولنجعل المجتمع، داخل هذا الوهم الحتمي، بأكثر طبيعة ممكنة، ليكون، لهذا السبب بالضبط، بأكثر عدل ممكن. ما هو الوهم الأكثر طبيعة. لا وجود لأي وهم طبيعي في حدّ ذاته، لأنه وهم؛ أكثر الأوهام طبيعة، في الحالة التي نتحدث عنها، يمكن أن

يكون **ذلك الوهم** الذي يبدو أكثر طبيعة، الذي **نشعر** كأنه أكثر طبيعة. ما هو الوهم الذي يبدو أكثر طبيعة، أو نشعر أنه أكثر طبيعة؟ إنه ذلك الذي تعودنا عليه. (عليك أن تميز ما هو من قبيل الطبيعة ممّا هو من قبيل الغريزة؛ وما ليس غريزة، لكنه يشبه في كل شيء الغريزة والعادة. إن التدخين ليس طبيعياً، ليس ضرورة غريزية؛ لكن، إذا تعودنا على التدخين، يصير شيئاً طبيعياً بالنسبة لنا، فيصبح شعورنا به كأنه حاجة غريزية). إذن، ما هو الوهم الاجتماعي الذي يشكل عادة بالنسبة لنا؟ إنه النظام الحالي، النظام البورجوازي. يجب علينا، بشكل منطقي، إما أن نرى أن المجتمع الطبيعي ممكن، فنكون من المدافعين عن الفوضوية؛ أو أن نظنّ أنه غير ممكن، فنكون من المدافعين عن النظام البورجوازي. لا وجود لفرضية وسطى. هل فهمت؟...

- نعم، سيدي، هذا مقنع.

- إنه لا يزال غير مقنع بشكل جيد... هناك اعتراض آخر، من النوع نفسه، يجب دحضه... يمكن الاتفاق على أن النظام الفوضوي قابل للتحقيق، لكن يمكن الشك في أنه قابل للتحقيق **فجأة**، أي الانتقال من المجتمع البورجوازي إلى المجتمع الحر دون أن تكون هناك حالات أو أنظمة وسطى. مَن يضع هذا الاعتراض يقبل بحسن المجتمع الفوضوي وقابلية تحقيقه؛ لكنه يظن أنه لا بد من وجود أي حالة انتقالية بين المجتمع البورجوازي والمجتمع الفوضوي.

«طيب. لنفترض أن الأمر كذلك. ما هي هذه الحالة الوسطى؟ إنّ هدفنا هو المجتمع الفوضوي، أو الحر، وهذه الحالة الوسطى،

إذن، لا يمكن أن تكون سوى حالة لاستعداد الإنسانية للمجتمع الحر. هذا الاستعداد يكون إما مادياً أو ذهنياً فقط؛ أي إما أن يكون سلسلة من الإنجازات المادية أو الاجتماعية التي تكيف الإنسانية مع المجتمع الحر، أو مجرد دعاية يكبُر نموها وتأثيرها بشكل تدريجي، تحضر ذهنياً للرغبة فيها وقبولها.

«لنرَ الحالة الأولى، أي تكيُّف الإنسانية الذهني التدرجي والمادي مع المجتمع الحر. إنه مستحيل، إنه أكثر من مستحيل: إنه عبثي. لا وجود لتكيف مادي مع شيء ما إلّا إذا كان هذا الشيء موجوداً أصلاً. لا يمكن لأي أحد منا أن يتكيف مادياً مع الوسط الاجتماعي للقرن الثالث والعشرين، حتى لو كان يعرف كيف سيكون؛ ولا يمكن التكيف مادياً لأن القرن الثالث والعشرين ووسطه الاجتماعي لا يوجدان مادياً بعد. هكذا، نصل إلى نتيجة أنه خلال الانتقال من المجتمع البورجوازي إلى المجتمع الحر، الجزء الوحيد الممكن في التكيف، والتطور أو الانتقال الذهني، هو التكيف التدريجي للعقول مع فكرة المجتمع الحر... وعلى أي حال، في مجال التكيف المادي، هناك فرضية أخرى أيضاً...

- كفى من كل هذه الفرضيات!...

- يا بني، على الرجل المتبصر أن يفحص كل الاعتراضات الممكنة ويدحضها، قبل أن يستطيع أن يقول إنه واثق من مذهبه. ثم، إنّ كل هذا يجيب عن سؤال طرحته عليّ...

- جيد.

- في مجال التكيف المادي، كنت أقول، هناك على أيّ حال فرضية أخرى. إنها فرضية الدكتاتورية الثورية.

- الدكتاتورية الثورية، كيف ذلك؟

- كما شرحت لك، لا يمكن التكيف مع شيء لا يوجد مادياً بعد، لكن، إذا حدثت فجأة الثورة الاجتماعية، سوف يقوم، ليس المجتمع الحر (لأن الإنسانية لن تكون مستعدة له بعد)، بل دكتاتورية من ذلك النوع الذي يريد أن يفرض المجتمع الحر، لكن يوجد **مادياً**، ولو بشكل أولي وفي بدايته، شيء من المجتمع الحر. إذن، هناك شيء مادي على الإنسانية أن تتكيف معه. هذه هي الحجة التي قد يستعملها أولئك البلهاء الذين يدافعون عن «دكتاتورية البروليتاريا» لو كانوا قادرين على الحجاج والتفكير. هذه الحجة طبعاً ليست لهم: إنها حجتي. أطرحها اعتراضاً على نفسي. وهي، كما سأبين لك... خاطئة.

«إن نظاماً ثورياً، ما دام موجوداً، وأيا كان الهدف الذي يسعى إليه أو الفكرة التي تقوده، ليس **مادياً** إلا شيئاً واحداً: نظام ثوري. والنظام الثوري يعني دكتاتورية حرب، أو، بالمعنى الحقيقي للكلمة، نظاماً عسكرياً استبدادياً، لأن حالة الحرب تُفرض على المجتمع من طرف جزء منه: ذلك الجزء الذي تولى السلطة بشكل ثوري. ماذا ينتج عن ذلك؟ يحصل أنّ من سيتكيف مع ذلك النظام، كما هو في شكله الوحيد، أي نظام عسكري بشكل مادي ومباشر، سيتكيف مع نظام عسكري استبدادي. إن الفكرة التي قادت الثوار، ذلك الهدف الذين كانوا يسعون له قد اختفى تماماً من **الواقع** الاجتماعي، الذي تشغله بالكامل الظاهرة الحربية. بحيث إن ما ينتج عن دكتاتورية ثورية - وسينتج بشكل كامل كلما طالت هذه الدكتاتورية - هو مجتمع حربي من صنف دكتاتوري، أي استبداد عسكري. لا يمكن

أن يكون شيئاً آخر. هذا ما حدث دائماً. إنني لا أعرف كثيراً من التاريخ، لكن ما أعرف ينطبق مع هذا الأمر، ولا يمكن إلا أن ينطبق. ماذا نتج عن الفتن السياسية في روما؟ الإمبراطورية الرومانية واستبدادها العسكري. ماذا نتج عن الثورة الفرنسية؟ نابليون واستبداده العسكري. وسترى ماذا سينتج عن الثورة الروسية... شيء سيُؤخر لعشرات السنين تحقيق المجتمع الحر... لكن، ماذا يمكن أن ننتظر من شعب من الأميين والصوفين؟...

«في آخر الأمر، هذا شيء خارج عن موضوع حديثنا... هل فهمتَ حُجَّتي؟

- فهمت جيداً.

- إذا، لقد فهمتَ أنني وصلتُ إلى هذه النتيجة: الغاية هي المجتمع الفوضوي، المجتمع الحر؛ الوسيلة هي المرور، **دون مرحلة انتقالية**، من المجتمع البورجوازي إلى المجتمع الحر. هذا المرور سيتم التحضير له وجعله ممكناً بواسطة دعاية مكثفة، كاملة، وآخذة، بحيث تهيئ مقدماً كل العقول وتُضعف كل أشكال المقاومة. طبعاً، لا أعني بالدعاية تلك التي تعتمد فقط على الكلمة المكتوبة والشفهية، بل كل شيء، الفعل المباشر وغير المباشر، وكل ما يُهيِّئ مقدماً للمجتمع الحر ويُضعف المقاومة عند حدوثها. هكذا، بما أنها لن تجد أي مقاومة لتتغلب عليها، عندما ستأتي الثورة الاجتماعية ستكون سريعة وسهلة ولن تكون بحاجة إلى أن تُقيم أي دكتاتورية ثورية، لأنه لن يكون هناك من ستطبقها ضده. إذا لم يكن هذا ممكناً بهذا الشكل، فذلك يعني أن الفوضوية غير قابلة للتحقيق؛ وإذا لم تكن الفوضوية قابلة للتحقيق، فإن المجتمع

الوحيد، العادل والذي يمكن الدفاع عنه، كما أثبتُّ لك سابقاً، هو المجتمع البورجوازي.

«إذن ها قد بينتُ لك لماذا وكيف أصبحت فوضوياً، ولماذا وكيف رفضتُ مذاهب اجتماعية أخرى أقل جرأة، لأنها خاطئة ومنافية للطبيعة.

«لنترك هذا الأمر... وسأواصل عرض قصتي.

حكَّ عود ثقاب وأشعل ببطء السيجارة. ركَّز، ثم واصل حديثه بعد ذلك بقليل.

– كان هناك عدة شبان لهم أفكاري نفسها. معظمهم من العمال، لكننا جميعاً كنا فقراء، وأذكر أننا لم نكن بلداء. كانت لنا رغبة في التعلم ومعرفة الأشياء، وفي الوقت نفسه إرادة في الدعاية لأفكارنا، ونشرها. كنا نريد لأنفسنا، وللآخرين، وللإنسانية جمعاء مجتمعاً جديداً، متحرراً من كل الأحكام الجاهزة، التي تجعل الناس غير متساوين بشكل مصطنع وتفرض عليهم دونية، وعذاباً، ومحناً لم تفرضها عليهم الطبيعة. شخصياً، ما كنت أقرأه كان يؤكد لي هذه الآراء. في كتب رخيصة تتحدث عن الحرية المطلقة، كانت كثيرة آنذاك، قرأت كل شيء تقريباً. ذهبت إلى محاضرات واجتماعات دُعاة تلك الفترة. كان كل كتاب وكل خطاب يقنعني أكثر بصحة وعدالة أفكاري. إن أفكاري آنذاك – أكرر لك ذلك يا صديقي – هي نفسها اليوم، مع فرق وحيد وهو أنني آنذاك كنت أفكر فيها فقط، واليوم أفكر فيها وأطبِّقها.

– موافق؛ إلى حدّ الآن كل شيء جيد. من الواضح أنك

أصبحت فوضوياً بهذه الطريقة، وأرى جيداً أنك كنت فوضوياً. لا أريد براهين أخرى على ذلك. ما أريد أن أعرف هو كيف نشأ البنكي من كل هذا...، كيف نشأ من كل هذا دون تناقض...، أي إنّ لديّ بعض الظن والتقدير...

- لا إنك لا تقدر شيئاً على الإطلاق... كل ما أريد قوله ... إنك تعتمد على الحجج التي سمعتها عني للتو، وظننتَ أنني وجدتُ الفوضوية غير قابلة للتحقيق، ولذلك، كما قلت لك، فإن الشيء العادل والذي يمكن الدفاع عنه هو المجتمع البورجوازي، أليس كذلك؟

- نعم ظننت أن الأمر كذلك تقريباً...

- لكن، كيف يمكن أن يكون كذلك، وقد قلت لك منذ بداية حديثنا إنني فوضوي وكررتُ ذلك، وأنني لم أكن فوضوياً فقط، بل ما زلت كذلك؟ لو أنني أصبحت بنكياً أو تاجراً للسبب الذي تظنه، لما كنت فوضوياً، بل بورجوازياً.

- نعم، إنك على حق... لكن، يا إلهي..؟ هيا أكمل حديثك...

- كما قلت لك كنت دائماً متبصراً تقريباً وإنساناً عملياً أيضاً. هذه صفات طبيعية؛ لم يضعوها لي في المهد (هذا إنْ كان لي مهد)، وأنا مَن حملها إلى هناك. طيب. بما أنني فوضوي، كنت أظن أنه لا يُطاق أن يكون المرء فوضوياً بشكل سلبي فقط، ويكتفي بالاستماع للخطب والحديث عن ذلك مع الأصدقاء. لا: كان لا بد من عمل شيء ما! كان لا بد من العمل والنضال من أجل المقهورين وضحايا الأعراف الاجتماعية! فقررتُ أن أساعد الغير، قدر ما

أستطيع. فبدأت أفكر كيف يمكن أن أكون مفيداً لقضية الفكر التحرري المطلق. أخذت أضع خطة عملي.

«ما الذي يريده الفوضوي؟ الحرية، الحرية لنفسه وللآخرين، وللإنسانية جمعاء. يريد أن يكون متحرراً من تأثير وضغط الأوهام الاجتماعية؛ يريد أن يكون حراً كما ولد وجاء إلى العالم، كما يجب أن يكون لو كان هناك عدالة؛ يريد تلك الحرية لنفسه وللآخرين. لا يمكن للجميع أن يكونوا سواسية أمام الطبيعة: يولد البعض طويلي القامة، وآخرون قصار؛ البعض أقوياء، وآخرون ضعفاء، البعض أكثر ذكاء، وآخرون أقل. . . لكن يمكن لهم جميعاً أن يكونوا متساوين منذ تلك اللحظة؛ وحدها الأوهام الاجتماعية تحوْل دون ذلك. هذه الأوهام الاجتماعية هي التي كان لا بد من تحطيمها.

«كان لا بد من تحطيمها. . . لكن لم يغب عن ذهني أمر: كان لا بد من تحطيمها، **لكن من أجل الحرية**، دون أن نغفل خلق المجتمع الحر. لأن تحطيم الأوهام الاجتماعية يمكن أن يكون من أجل خلق الحرية، أو تمهيد الطريق للحرية، كما يمكن أن يكون من أجل إقامة أوهام اجتماعية أخرى مختلفة، لا تقلُّ عنها سوءاً لأنها أوهام مثلها. لذا كان لا بد من الحذر. كان لا بد من إيجاد طريقة للعمل، مهما كان عنفها أو لاعنفها (لأن كل شيء كان مشروعاً ضد الظلم الاجتماعي)، يمكن بواسطتها المساهمة في هدم الأوهام الاجتماعية، وفي الوقت نفسه دون عرقلة خلق الحرية المستقبلية؛ وأيضاً، إذا كان ممكناً، خلق شيء من الحرية المستقبلية.

«طبعاً، هذه الحرية، التي يجب أن نتحاشى عرقلتها، هي **الحرية المستقبلية**، وفي الوقت الحاضر هي **حرية المقهورين**

بالأوهام الاجتماعية. طبعاً، يجب أن لا نعمل على تجنب عرقلة «حرية»، الأقوياء، وأصحاب المواقع المتميزة، وكلّ مَن يمثلون الأوهام الاجتماعية ويستفيدون منها. هذه ليست حرية؛ إنها حرية الاستبداد، المنافي للحرية. على العكس من ذلك، هذا هو ما يجب أن نفكر في عرقلته ومحاربته. يبدو لي أن هذا واضح...

- إنه جد واضح. تابع كلامك...

- لمن يريد الفوضوي الحرية؟ للإنسانية جمعاء. ما هي الطريقة للحصول على الحرية للإنسانية جمعاء؟ بالتحطيم الكلي لكل الأوهام الاجتماعية. كيف يمكن أن تُحطم كلياً كل الأوهام الاجتماعية؟ عندما طرحتَ سؤالك وناقشتُ معك الأنظمة التقدمية الأخرى، سبق وشرحت لك كيف ولماذا كنتُ فوضوياً... هل تذكر استنتاجي؟...

- أذكر...

- ... ثورة اجتماعية مباغتة، مفاجئة، وساحقة، تجعل المجتمع يمر، بقفزة واحدة، من النظام البورجوازي إلى المجتمع الحر. هذه الثورة الاجتماعية يتم التحضير لها بالعمل المكثف والمتواصل، والفعل المباشر وغير المباشر، هدفها تهيئة كل العقول لقدوم المجتمع الحر، وإضعاف كل أشكال المقاومة البورجوازية إلى حد الغيبوبة. لا أحتاج إلى أن أذكرِّك بالأسباب التي تؤدي حتماً إلى هذا الاستنتاج، داخل الفوضوية، بما أنني شرحتها لك من قبل وفهمتَها.

- نعم.

- هذه الثورة من الأحسن أن تكون عالمية، وبتزامن في كل

الجهات، أو في الجهات المهمة من العالم؛ أو، إذا لم يكن كذلك، أن تنتقل بسرعة من جهة إلى أخرى، أي أن تكون مداهمة وكاملة في كل أمة.

«جيد. ماذا يمكن لي **أنا** أن أقوم به من أجل هذا الهدف؟ لا يمكنني لوحدي أن أقوم بالثورة العالمية، بل لن أستطيع القيام بالثورة الكاملة في الجهة من البلد الذي أُوجد فيه. ما قد أستطيع فعله هو أن أعمل، بكلّ قواي، للتحضير لتلك الثورة. لقد شرحت لك كيف ذلك: بأن أحارب، بكل الوسائل المتاحة، الأوهام الاجتماعية؛ دون أن أعرقل أبداً أثناء هذه المعركة أو الدعاية للمجتمع الحر، لا الحرية المستقبلية، ولا الحرية الحالية للمقهورين؛ وأخلق، ما دام الأمر ممكناً، أي شيء من الحرية المستقبلية.

انتشق الدخان؛ صمت قليلاً؛ ثم استأنف:

هنا، يا صديقي، شغّلت بصيرتي. العمل من أجل المستقبل، هذا جيد، فكرت؛ العمل من أجل أن ينعم الآخرون بالحرية، هذا صحيح، لكن، وأنا؟ لست أي شيء؟ لو كنت مسيحياً، سأعمل بكل فرح من أجل مستقبل الآخرين، لأن الجزاء ينتظرني في الجنة؛ لكن أيضاً، لو كنت مسيحياً، لن أكون فوضوياً، لأن هذه الفوارق الاجتماعية لن تكون لها أهمية في حياتنا القصيرة: لن تكون سوى شروط لاختبارنا، وسننال عنها الجزاء في الحياة الخالدة. لكني لم أكن مسيحياً، ولست مسيحياً، وكنت أتساءل: لكن من أجل مَن سأضحي في كل هذا؟ بل أكثر من ذلك: **لماذا** سأضحي؟

«انتابتني لحظات من الكفر، وأنت تفهم أنه كان كفراً مبرراً. . .

إنني مادي، كنت أفكر؛ لا أملك غير هذه الحياة؛ لماذا سأشغل بالي بالدعاية والفوارق الاجتماعية، وحكايات أخرى، إذا كنت أستطيع أن أستمتع وأتسلى أكثر إن لم أشغل نفسي بكل هذا؟ مَن لا يملك غير هذه الحياة، من لا يؤمن بالحياة الخالدة، من لا يقبل قانوناً غير الطبيعة، مَن يعارض الدولة لأنها ليست طبيعية، ويعارض الزواج لأنه ليس طبيعياً، ويعارض المال لأنه ليس طبيعياً، ويعارض كل الأوهام الاجتماعية لأنها ليست طبيعية، لماذا يدافع عن حب الغير والتضحية في سبيل الآخرين، أو في سبيل الإنسانية، إذا كان حب الغير والتضحية بدورهما غير طبيعيين. نعم، إن المنطق نفسه الذي يبيِّن لي أن الإنسان لا يولد ليكون متزوجاً، أو ليكون برتغالياً، أو ليكون غنياً أو فقيراً، يبيِّن لي أيضاً أنه لا يولد ليكون متضامناً، وأنه لا يولد إلا ليكون ذاته، وبالتالي معادياً لمحبة الغير والتضامن، ومن هنا ليكون أنانياً فقط.

«ناقشت هذه المسألة مع نفسي. انتبه، كنت أقول لنفسي، إننا نولد منتمين إلى الجنس البشري ويجب أن نكون متضامنين مع كل البشر، لكن هل فكرة «يجب» طبيعية؟ من أين أتت فكرة «يجب» هاته؟ إذا كانت فكرة الواجب هاته تفرض عليّ أن أضحي برفاهيتي، براحتي، بغريزة بقائي وبغرائزي الطبيعة الأخرى، فأين يكمن اختلاف فعل هذه الفكرة عن فعل أي وهم اجتماعي آخر، يخلف فينا الأثر نفسه؟

«فكرة الواجب هاته، فكرة التضامن الإنساني، لا يمكن اعتبارها طبيعية إلا **إذا حملت معها جزاء أنانياً**، لأنه في هذه الحالة، رغم أنها تتعارض مبدئياً مع الأنانية الطبيعية، يتم تقديم

جزاء لهذه الأنانية، ولا تتنافى معها، في نهاية المطاف. أن نضحي بمتعة، لمجرد التضحية، ليس أمراً طبيعياً؛ أن نضحي بمتعة من أجل متعة أخرى، هذا يدخل في دائرة الطبيعة: من الأحسن أن نختار واحداً من بين أمرين طبيعيين لا يمكن امتلاكهما معاً، لكن، أي جزاء أناني، أو طبيعي، يمكن أن يقدِّمه لي هذا التفرغ لقضية المجتمع الحر والسعادة المستقبلية للإنسانية؟ الإحساس بالواجب المؤدى فقط، والمجهود المبذول من أجل هدف جميل؛ ولا يمكن اعتبار أي واحد من الأمرين جزاء أنانياً، لا يمكن اعتبار أي واحد من هذين الأمرين متعة في حد ذاته، بل متعة، إن كان كذلك، نشأت عن وهم، كما يمكن أن تكون المتعة بأن نكون أغنياء بشكل كبير، أو متعة النشأة في وضعية اجتماعية جيدة.

«أعترف لك، يا صديقي، أنه انتابتني فترات من الكفر... أحسستُ أنني لم أكن وفياً لمذهبي، أنني خنته... لكنني سرعان ما تجاوزت كل ذلك، لكن فكرة العدالة كانت هنا بداخلي، فكَّرت. أحسستُ بها طبيعية. كنت أشعر أن هناك واجباً أسمى من الانشغال بمصيري فقط. فتابعتُ ما كنت أنوي القيام به.

- لا يبدو لي أن هذا القرار ينمّ عن تبصُّر من طرفك... إنك لم تحلّ الصعوبة... لقد واصلت عملك بدافع عاطفي مطلق...

- ما من شك في ذلك، لكن ما أحكي لك الآن هو قصة كيف أصبحتُ فوضوياً، وكيف بقيت فوضوياً، وما زلت. إنني أعرض عليك بكلّ إخلاص الترددات والصعوبات التي واجهتني، وكيف تغلبتُ عليها. أتفق معك أنني، في تلك الفترة، تغلبت على الصعوبة المنطقية بالعاطفة، وليس بالتفكير المنطقي، لكن كما سترى، فيما

بعد، عندما فهمت المذهب الفوضوي كامل الفهم، وجدت هذه الصعوبة، التي ظلت إلى غاية تلك اللحظة منطقياً دون جواب، حلها الكامل والمطلق.

- هذا غريب. . .

- إنه غريب. . . دعني الآن أتابع قصتي. واجهتني هذه الصعوبة وتغلّبت عليها، بطريقة أو بأخرى، كما قلت لك. بعد ذلك مباشرة، وعلى مستوى أفكاري، برزت أمامي صعوبة أخرى عرقلتني ما يكفي بدورها.

«طيب، لقد كنت مستعداً لأضحي بنفسي، دون أي جزاء شخصي يُذكر، أعني دون أيّ جزاء **طبيعي** في الحقيقة، لكن، لنفترض أن المجتمع المستقبلي لا يقدم شيئاً ممّا كنت أنتظره، وأن المجتمع الحر لن يوجد أبداً، فمن أجل ماذا سأضحي في هذه الحالة؟ أن أضحي من أجل فكرة شخصية، دون أن أنال أي شيء عن مجهودي من أجل هذه الفكرة، هذا مقبول، لكن أن أضحي دون أن أكون، على الأقل، متأكداً أن ذلك الشيء الذي أعمل من أجله، سيوجد يوماً ما، **دون أن تتحسن الفكرة بفعل مجهودي**، هذا ما لا يمكن قبوله. . . انطلاقاً من هذه اللحظة، يمكن لي أن أقول لك إنني تغلبت على هذه الصعوبة بالطريقة العاطفية نفسها التي تغلبت بها على الصعوبة الأخرى؛ لكني أنبهك أيضاً إلى أنني، كما بالنسبة إلى الصعوبة الأخرى، تغلبت على هذه الصعوبة بالمنطق، وبشكل تلقائي، عندما بلغتُ مرحلة الوعي الكامل من فوضويتي. . . سترى فيما بعد. . . في هذه الفترة التي أحدثكَ عنها، خرجتُ من المأزق بجملة جوفاء أو جملتين. «إنني أقوم بواجبي تجاه المستقبل؛ فليقُم

المستقبل بواجبه تجاهي»... هذا، أو شيء من هذا القبيل...

«عرضت هذا الاستنتاج، أو بالأحرى هذه الاستنتاجات على رفقائي، فاتفقوا معي جميعاً؛ اتفقوا معي جميعاً على أنه لا بد من المضي قُدُماً في عمل كل شيء من أجل المجتمع الحر. صحيح أن البعض منهم، من بين أكثرهم ذكاء، ظلوا منبهرين بالعرض، ليس لأنهم لم يوافقوني الرأي، بل لأنه لم يسبق لهم أن رأوا الأمور بكل هذا الوضوح، ولا الصعوبات التي تنطوي عليها هذه الأمور... لكنهم، في النهاية، كانوا جميعاً يتفقون معي... سنعمل جميعاً من أجل الثورة الاجتماعية الكبرى، من أجل المجتمع الحر، سواء أنصفنا المستقبل أم لم ينصفنا! شكَّلنا مجموعة، مكونة من أشخاص ثقة، وبدأنا دعاية كبيرة، طبعاً، في حدود ما كان بإمكاننا القيام به. خلال وقت طويل، وسط الصعوبات، والتعقيدات، وأحياناً المتابعات، أخذنا نعمل من أجل تحقيق المُثُل العليا للفوضوية.

عندما وصل إلى هذه النقطة، لزم البنكي صمتاً أطول. لم يشعل السيجارة، التي انطفأت ثانية. فجأة، ابتسم بشكل خفيف، وكَمَنْ يصل إلى النقطة الحاسمة، حدَّق فيّ بإلحاح أكبر وتابع كلامه، موضحاً صوته بشكل أكبر ومبرزاً الكلمات.

- في هذه الفترة، قال، ظهر أمر جديد. «في هذه الفترة» إنه مجرد كلام. أريد أن أقول إنه شهوراً بعد هذه الدعاية، بدأت أنتبه إلى صعوبة جديدة، كانت حقاً من أخطر الصعوبات، كانت حقاً من أخطرها في الواقع...

«إنك تذكر، أليس كذلك؟ كيف قررت بعد تفكير منطقي صارم،

الطريقة التي يجب أن يتم بها العمل الفوضوي. . . الطريقة، أو الطرق، أياً كانت التي ستساهم في تحطيم الأوهام الاجتماعية دون أن تعرقل، في أي شيء، مع ذلك، الحرية القليلة للمقهورين حالياً بالأوهام الاجتماعية؛ طريقة، نظراً إلى أنها ممكنة، قد تخلق شيئاً من الحرية المستقبلية. . .

طيب، بعد الإقرار بهذا المعيار، لم أكفّ أبداً عن استحضاره. . . لكن، أثناء القيام بدعايتنا التي أحدِّثكَ عنها، اكتشفت شيئاً. داخل مجموعة الدعاية - لم نكن كثيرين؛ كنا حوالى أربعين، إن لم أكن مخطئاً - كان يحدث هذا الأمر: **كان يتولد الاستبداد.**

- كان يتولد الاستبداد؟. . . كيف كان يتولد الاستبداد؟

- بهذا الشكل . . . كان البعض يتحكم في البعض الآخر، ويأخذوننا أينما شاؤوا؛ كان البعض يفرض نفسه على البعض الآخر ويجبروننا على أن نكون ما يريدون؛ كان البعض يجرّ البعض الآخر بواسطة حيل وأساليب إلى حيث يريدون. لا أقول إنهم كانوا يقومون بذلك في أمور خطيرة؛ بل إنه لم تكن هناك أمور خطيرة يمكنهم أن يقوموا فيها بذلك، لكن الواقع أن هذا كان يقع دائماً وكل يوم، وكان لا يقع في أمور لها علاقة بالدعاية فقط، بل خارجها أيضاً، في أمور تافهة من الحياة اليومية. كان البعض يتجهون تدريجياً ليصبحوا زعماء، وآخرون يسيرون تدرجياً ليصيروا تابعين. البعض كانوا زعماء بالقوة، وآخرون كانوا زعماء بالحيلة. كان ذلك يتجلى في أبسط الأمور. مثلاً: عندما يمشي شابان متقدمين في الشارع؛ ويصلان إلى نهايته، وعلى الأول أن يذهب يميناً والثاني يساراً؛ ومن مصلحة كلّ

واحد منهما أن يذهب في اتجاهه، لكن مَن يذهب جهة اليسار يقول للآخر: «هيا معي من هذه الجهة»؛ فيرد عليه الآخر، وهو على حق: «يا هذا، لا أستطيع، عليّ أن أذهب نحو الجهة الأخرى» لهذا السبب أو ذاك... لكنه، في النهاية، ضد إرادته ومصلحته، يذهب مع الآخر في اتجاه اليسار... كان هذا يحدث أحياناً بواسطة الإقناع، وأحياناً بمجرد الإلحاح، وأحياناً أخرى لسبب آخر من هذا القبيل... أي إنه لا يحدث أبداً لسبب منطقي؛ كان في هذا التكليف وهذه التبعية شيء من العفوية، ما يشبه الغريزة... وكما في هذه الحالة البسيطة، كانت الأمور كذلك في كل الحالات الأخرى؛ من أبسط الحالات إلى أهمها... هل فهمت هذه الحالة؟

- فهمت. ما هو الغريب في هذا الأمر؟ إنه من أكثر الأمور الطبيعية!...

- هذا ممكن. سنرى ذلك. ما أطلب منك أن تنتبه إليه هو أنه **يتنافى تماماً مع المذهب الفوضوي**. انتبه إلى أن هذا كان يحصل في مجموعة صغيرة، مجموعة لا تأثير لها ولا أهمية، مجموعة لم يوكل لها البحث عن حلّ لمسألة خطيرة أو اتخاذ قرار حول موضوع ذي أهمية قصوى. ولا تنسَ أن ذلك كان يحدث في مجموعة من الناس اجتمعوا خصيصاً ليقوموا بما في وسعهم من أجل الهدف الفوضوي، أي محاربة الأوهام الاجتماعية، قدر المستطاع، وخلق الحرية المستقبلية، قدر الإمكان. هل انتبهت جيداً إلى هاتين النقطتين؟

- انتبهت.

- انتبه جيداً الآن إلى ما يمثله ذلك... مجموعة صغيرة من أشخاص صادقين (أؤكد لك أنهم كانوا صادقين!)، تكوَّنت واتّحدت

خصيصاً للعمل من أجل قضية الحرية، لم يحصلوا، بعد نهاية بضعة أشهر، إلا على شيء واحد إيجابي وملموس: **أن يخلقوا الاستبداد فيما بينهم**. وفكر أي استبداد هو... لم يكن استبداداً ناتجاً عن فعل الأوهام الاجتماعية، الذي، رغم أنه مؤسف، يمكن أن يُغفر، إلى حدٍّ ما، وخصوصاً بيننا نحن الذين كنا نحارب تلك الأوهام، أكثر من أي أشخاص آخرين؛ لكن، في النهاية، كنا نعيش وسط مجتمع مبني على أساس تلك الأوهام ولم يكن الذنب بالكامل ذنبنا إذا لم نستطع الهروب من أثرها، لكن الأمر لم يكن كذلك. مَن كانوا يتحكمون في الآخرين، من كانوا يأخذون الآخرين إلى حيث يشاؤون، لم يكونوا يقومون بذلك بقوة المال، أو الوضع الاجتماعي، أو أي سلطة أخرى ذات طبيعة وهمية، ينسبونها لأنفسهم؛ بل كانوا يقومون بذلك بدافع من أيّ نوع آخر من خارج الأوهام الاجتماعية. أي أن هذا الاستبداد، بالمقارنة مع الأوهام الاجتماعية، كان **استبداداً جديداً**. كان استبداداً يمارَس على أناس مقهورين أصلاً بالأوهام الاجتماعية. وكان، فوق كل ذلك، استبداداً يمارسه بعضهم على بعض أناس لم يكن قصدهم الصادق سوى تحطيم الاستبداد وخلق الحرية.

«والآن، طبق هذه الحالة على مجموعة أكبر، أكثر تأثيراً، تعالج قضايا هامة وقرارات أساسية. وافترض أن هذه المجموعة توجه مجهوداتها، مثلنا، لبناء مجتمع حر. والآن قُل لي إن كنت ترى، من خلال هذه الشحنة من الاستبدادات المتقاطعة، أي مجتمع مستقبلي يشبه مجتمعاً حراً أو إنسانية جديرة بهذا الاسم...

- نعم، هذا أمر غريب جداً...

- إنه غريب، أليس كذلك؟ ولا تنسَ أن هناك نقطاً ثانوية هي أيضاً جد غريبة. . . مثلاً: استبداد المساعدة. . .

- ماذا؟

- استبداد المساعدة. كان من بيننا من، عوض أن يتحكَّم في الآخرين، ويفرض عليهم نفسه، كان، على العكس من ذلك، يساعدهم في كل ما يستطيع القيام به. يبدو أن الأمر مختلف، أليس كذلك؟ لكن انظر إنه الشيء نفسه. إنه الاستبداد الجديد نفسه. الطريقة نفسها لمناهضة مبادئ الفوضوية.

- لا أصدق! كيف ذلك؟

- أن نساعد شخصاً، يا صديقي، معناه أن نعتبره غير قادر؛ وإذا لم يكن هذا الشخص غير قادر، فمعناه أن نجعله كذلك، أو نفترض أنه كذلك، وهذا يعتبر في الحالة الأولى استبداداً، وفي الحالة الثانية احتقاراً. ففي حالة نقلِّل من حرية الغير؛ وفي حالة أخرى ننطلق، من دون وعي على الأقل، من مبدأ أن الغير قابل للاحتقار وغير جدير بالحرية أو غير قادر عليها.

«ولنعُد إلى حالتنا. . . إنك ترى أن هذه النقطة كانت خطيرة للغاية. لنقبل أننا كنا نعمل من أجل المجتمع المستقبلي دون أن ننتظر منه شكراً على ذلك، أو أننا كنا نخاطر أنه لن يأتي أبداً. كل هذا يمكن قبوله، لكن ما لا يُطاق هو أننا كنا نعمل من أجل حرية مستقبلية ولا نقوم بشيء إيجابي سوى أننا نخلق استبداداً، وليس استبداداً فحسب، بل استبداداً جديداً، استبداداً نمارسه نحن المقهورين بعضنا على بعض. هذا ما لم يكن مقبولاً. . .

«أخذت أفكر. هنا يوجد خطأ، انحراف ما. نوايانا كانت

حسنة، مذهبنا كان يبدو على صواب؛ هل كانت طُرق عملنا هي الخاطئة؟ أكيد أنها كانت خاطئة، لكن، أين كان يكمن الخطأ؟ بدأت أفكر في هذا الأمر حتى كدتُ أجنّ. وذات يوم، فجأة، كما يحدث دائماً في هذه الأمور، وجدت الحلّ. كان ذلك هو اليوم العظيم لنظرياتي الفوضوية؛ اليوم الذي اكتشفتُ فيه، إذا صحّ القول، تقنية الفوضوية.

نظر إليّ لحظة دون أن ينظر إليّ. بعد ذلك، تابع بالنبرة نفسها:

فكرت بهذه الطريقة... نحن أمام استبداد جديد، استبداد غير ناتج عن الأوهام الاجتماعية. إذن، عن أي شيء ينتج؟ هل ينتج عن الصفات الطبيعية؟ إذا كان كذلك، فوداعاً المجتمع الحر! إذا كان هناك مجتمع لا تشتغل فيه سوى الصفات الطبيعية للبشر، تلك الصفات التي يولدون بها، ولا يدينون بها إلا للطبيعة، وهي الصفات التي ليست لنا عليها أي سلطة، إذا كان هناك مجتمع لا تشتغل فيه سوى هذه الصفات هو تراكم من الاستبدادات فمَن سيقوم بأدنى شيء من أجل حلول هذا المجتمع؟ استبداد عوض استبداد، فليبقَ الاستبداد القائم، على الأقل هو الذي تعودنا عليه، وسنشعر به حتماً بشكل أقلّ ممّا قد نشعر باستبداد جديد له الخاصية الفظيعة نفسها للأمور المستبدة المنحدرة مباشرة من الطبيعة: إنه لا يمكن التمرّد ضده، مثل إنه لا يمكن الثورة ضد حتمية الموت، أو أن يولد المرء قصير القامة بينما كان يفضل أن يولد طويلاً. ثم إنني بيَّنت لك أنه، إذا لم يكن ممكناً، لأيّ سبب من الأسباب، تحقيق المجتمع الفوضوي، يجب أن يوجد المجتمع البورجوازي، لأنه الأقرب إلى الطبيعة من أيّ مجتمع آخر عدا المجتمع الفوضوي.

«لكن، هل يمكن أن يكون ذلك الاستبداد الذي نشأ بيننا ناتجاً في الواقع عن الصفات الطبيعية؟ لكن، ما هي الصفات الطبيعية؟ إنها درجة الذكاء، والخيال، والإرادة. . . إلخ، التي يولد بها المرء؛ هذا على المستوى الذهني، طبعاً، لأنّ الصفات الطبيعية الجسدية لا داعي لذكرها. طيب، إذا قام شخص، دون سبب ناتج عن الأوهام الطبيعية، بالتحكُّم في شخص آخر، فإنه بالضرورة يقوم بذلك لأنه أعلى درجة منه في واحدة من الصفات الطبيعية. إنه يُخضعه مستعملاً صفاته الطبيعية، لكن بقي أمر آخر: استعمال الصفات الطبيعية، هل يمكن أن يكون أمراً مشروعاً، أي هل يمكن أن يكون طبيعياً؟

«طيب، ما هو الاستعمال الطبيعي لصفاتنا الطبيعية؟ أن نخدم الأهداف الطبيعية لشخصيتنا، لكن، هل يمكن أن يكون إخضاع شخص ما هدفاً طبيعياً لشخصيتنا؟ يمكن أن يكون كذلك؛ هناك حالة يمكن أن يكون فيها كذلك: إذا كان هذا الشخص بالنسبة لنا في موقع العدو. بالنسبة إلى الفوضوي، طبعاً، مَن يوجد في موقع العدو هو أي ممثل للأوهام الاجتماعية واستبدادها؛ ولا أحد غيره، لأنّ كل الناس هم بشر مثله ورفقاء طبيعيون. والآن، كما ترى جيداً، إن حالة الاستبداد التي كنا نخلقها بيننا لم تكن هي هاته؛ إن الاستبداد الذي كنا نخلقه كان يمارَس على بشرٍ مثلنا، على رفقاء طبيعيين، والأدهى من ذلك أنه كان يمارَس على بشرٍ هم رفقاؤنا بشكل مضاعف، لأنهم كانوا رفقاء يشاركوننا أيضاً في المثل العليا. استنتاج: استبدادنا هذا، لم يكن ناتجاً عن الأوهام الاجتماعية، ولا عن الصفات الطبيعية؛ كان ناتجاً عن تطبيق خاطئ، عن انحراف، للصفات الطبيعية. وهذا الانحراف، أين كان مصدره؟

«كان يصدر عن واحد من أمرين: إما أن الإنسان شرير بطبيعته، فتكون بذلك كل الصفات الطبيعية **منحرفة بشكل طبيعي**، أو عن انحراف ناتج عن بقاء طويل للإنسانية في جو من الأوهام الطبيعية، كلها تخلق الاستبداد، وتميل، بذلك، إلى أن تُحوّل إلى استبداد غريزي الاستعمال الأقرب إلى الطبيعة من الصفات الطبيعية. والآن، من بين هاتين الفرضيتين، أيهما يمكن أن تكون أقرب إلى الحقيقة؟ بشكل مقنع، أي منطقي وعلمي صارم، لم يكن من الممكن التحديد. لا يمكن أن يدخل التفكير المنطقي في المسألة، لأنه من نسق تاريخي، أو علمي، ويرتبط بمعرفة **الوقائع**. من جهته، العلم لا يسعفنا أيضاً، لأنه مهما رجعنا في التاريخ إلى الوراء، سنجد دائماً أن الإنسان كان يعيش تحت هذا النظام أو ذلك من الاستبداد الاجتماعي، وبالتالي دائماً في وضعية لا تسمح بأن نتأكد كيف يكون الإنسان عندما يعيش في ظروف طبيعية كاملة وخالصة. ونظراً إلى عدم وجود طريقة للتحديد بشكل صحيح، علينا أن نميل إلى الجانب الأكثر احتمالاً؛ والاحتمال الأرجح يوجد في الفرضية الثانية. إنه أكثر طبيعة أن نفترض أن بقاء الإنسانية الطويل في الأوهام الاجتماعية المولّدة للاستبداد يجعل الإنسان يولد أصلاً بصفات طبيعية منحرفة بمعنى ممارسة الاستبداد عفوياً، حتى في مَن لا ينوي أن يستبدّ، من أن نفترض أن صفات طبيعية يمكن أن تنحرف بشكل طبيعي، وهو ما يمثِّل، بشكل ما، تناقضاً. لهذا فإن المفكر يختار الفرضية الثانية، كما فعلتُ، بثقة شبه كاملة.

«لدينا إذن، أن هناك أمراً بديهياً... في الوضع الاجتماعي الحالي لا يمكن لمجموعة من الناس، مهما كانت نواياهم صادقة

جميعاً، ومهما كانوا لا ينشغلون سوى بمحاربة الأوهام الاجتماعية والعمل من أجل الحرية، أن يعملوا مجتمعين دون أن يخلقوا استبداداً بينهم بعفوية، دون أن يخلقوا استبداداً من نوع جديد، يُكمّل استبداد الأوهام الاجتماعية، دون أن يهدموا في الممارسة كلّ ما يريدون على مستوى النظرية، دون أن يعرقلوا قدر الإمكان الهدف الذي يريدون دعمه. ما العمل؟ المسألة بسيطة... أن نعمل جميعاً من أجل الهدف نفسه، **لكن متفرقين**.

- متفرقين؟!

- نعم، ألم تتابع حجتي؟

- تابعتها.

- ألا تجد أن هذا الاستنتاج منطقي وحتمي؟

- نعم، إنني أجده كذلك... ما ليس واضِحاً لدي هو كيف ذلك...

- سأوضح لك... لقد قلت: أن نعمل جميعاً من أجل الهدف نفسه، لكن متفرقين. إذا اشتغلنا مجتمعين من أجل الهدف الفوضوي نفسه، سيساهم كلّ واحد بمجهوده في تحطيم الأوهام الاجتماعية وخلق المجتمع المستقبلي الحرّ، وهو ما يصبو إليه؛ وإذا اشتغلنا متفرقين لا يمكننا **بأيّ شكل** أن نخلق استبداداً جديداً، لأن ليس لأي أحد تأثير على الآخر، وبالتالي لا يمكنه، حتى لو أخضعه، أن يقلل من حريته، ويطفئها، إن هو ساعده.

«إذا اشتغلنا هكذا متفرقين من أجل الهدف نفسه، تكون لنا الفائدتان: المجهود المشترك وعدم خلق استبداد من نوع جديد. سنبقى متحدين، لأننا متحدون معنوياً ونعمل بالطريقة نفسها من أجل

الهدف نفسه؛ سنظل فوضويين، لأن كل واحد منا يعمل من أجل المجتمع الحر؛ لكن سنكفّ عن أن نكون خائنين، عن قصد أو غير قصد، لقضيتنا، سنكف عن ذلك، لأنه بواسطة العمل الفوضوي المنعزل، سنضع أنفسنا خارج التأثير القاتل للأوهام الاجتماعية، في انعكاسها المتوارث على الصفات التي وهبتها الطبيعة.

«طبعاً، هذا التكتيك ينطبق على ما أسميته **مرحلة التحضير** للثورة الاجتماعية. بعد هدم معاقل البورجوازية، وبعد أن يصبح المجتمع بكامله في حالة تقبُّل للأفكار الفوضوية، وبعد أن لن يتبقى سوى القيام بالثورة الاجتماعية، حينذاك، عندما تحين الضربة الأخيرة، يجب أن يتوقف العمل المنفرد، لكن، حينئذٍ، سيكون المجتمع الحر قد حلّ فعلاً؛ وستكون الأمور مختلفة. إن التكتيك الذي أشير إليه لا يتعلق سوى بالعمل الفوضوي داخل المجتمع البورجوازي، كما هو الشأن الآن، كما كان الشأن داخل المجموعة التي كنت أنتمي إليها.

«هذه هي - في النهاية! - الطريقة الفوضوية الحقيقية. مجتمعين، لم تكن لنا قيمة تُذكر، وفوق ذلك كنا نمارس الاستبداد بعضنا على بعض ونعرقل بعضنا بعضاً، كما نعرقل نظرياتنا. متفرقين، لم نكن نحقق الكثير، لكن على الأقل لم نكن نعرقل الحرية، لم نكن نخلق استبداداً من نوع جديد؛ ما كنا نحققه، مهما كان قليلاً، كان يتحقق دون أضرار ولا خسائر. ثم إنه بالعمل متفرقين كنا نتعلم الثقة في أنفسنا، وأن لا نعتمد بعضنا على بعض، أن نصير أكثر حرية، ونهيِّئ أنفسنا والآخرين للمستقبل باتباع قدوتنا.

«سُررت بهذا الاكتشاف. ذهبتُ للتو لأعرضه على رفقائي. . .

كانت تلك من المرات القلائل في حياتي التي كنت فيها غبياً. تصور أنني كنت سعيداً جداً باكتشافي لدرجة أنني كنت أنتظر أنهم سيوافقوني الرأي!...

- لم يوافقوك الرأي، طبعاً...

- لقد تراجعوا، يا صديقي، تراجعوا جميعاً! بعضهم كثيراً، والآخرون قليلاً، احتجّ الجميع! ليس هذا!... هذا ليس ممكناً!... لكن لا أحد كان يقول ماذا كان أو ماذا كان يجب أن يكون. قدَّمت الحجج تلو الحجج، ومقابل حججي لم أحصل سوى على جمل، وزُبال، وأشياء كتلك التي يردّ بها الوزراء في المجالس عندما لا يجدون أي جواب... حينئذٍ رأيت مع أي نوع من البلداء والجبناء حشرت نفسي! سقطت أقنعتهم. هؤلاء السفلة من الناس ولدوا ليكونوا عبيداً. كانوا يريدون أن يصبحوا فوضويين على حساب الغير. كانوا يريدون الحرية، شريطة أن يحصل لهم عليها الآخرون، شريطة أن تُقدَّم لهم كما يَمنح الملك الألقاب! كلهم من هذا النوع، أولئك الأتباع!

- وهل غضبت؟

- تسألني هل غضبتُ! بل سخطتُ! ونفد صبري. كدتُ أتخانق مع اثنين أو ثلاثة منهم. وفي الأخير ذهبت لحالي. انعزلت. لقد اشمأزت نفسي من ذلك القطيع من الخرفان، كما لا يمكنك أن تتصور! كدتُ أكفر بالفوضوية. حتى إنني قررت أنه لم يعُد يهمني شيء من ذلك كله، لكن، بعد مرور بضعة أيام، أفقت من الإغماء. فكرت أن المثل العليا للفوضوية هي فوق كلّ تلك التنافرات. هم، ألم يكونوا يرغبون في أن يصبحوا فوضويين؟ قد أكون أنا فوضوياً.

هل كانوا فقط يمثلون دور المتحررين المطلقين؟ أنا لم أكن مستعداً للتمثيل في مثل هذه الحالات. ألم تكن لديهم القوة للكفاح إلّا بالاعتماد بعضهم على بعض، وخلق صورة جديدة عن الاستبداد الذي يدّعون محاربته؟ فليفعلوا، الأغبياء، إذا لم يعودوا ينفعون في أي شيء آخر. أنا لن أكون بورجوازياً مقابل شيء جدّ قليل.

«كان من الواضح أنه، في الفوضوية الحقيقية، يجب على كلّ واحد، بالاعتماد على قواه الذاتية، أن يخلق الحرية ويحارب الأوهام الاجتماعية. وأنا كنت سأخلق الحرية وسأحارب الأوهام الاجتماعية بالاعتماد على قواي الذاتية. ألم يكن يرغب أيّ أحد أن يتبعني في الطريق الحقيقية للفوضوية؟ **أنا** سأتبع الطريق مكانه. سأذهب أنا لوحدي، بوسائلي الخاصة، بإيماني، ومن دون الدعم الذهني لمن كانوا رفقائي، ضدّ كل الأوهام الاجتماعية. لا أقول إنها كانت مبادرة جيدة، أو مبادرة بطولية، بل كانت مبادرة طبيعية بكل بساطة. إذا كان لا بد لكلّ واحد من اتّباع السبيل على انفراد، أنا لم أكن بحاجة إلى أيّ كان كي أتبعه. كان يكفيني مَثَلي الأعلى. اعتماداً على هذه المبادئ وهذه الظروف قرّرت لوحدي أن أحارب الأوهام الاجتماعية.

عَلَّقَ للحظة الخطاب، الذي أصبح حماسياً وسلساً. ثم استأنفه بعد ذلك، بصوت أكثر هدوءاً:

- فكرت، إنها حالة حرب بيني وبين الأوهام الاجتماعية. جيد. ماذا عساني أقوم به ضد الأوهام الاجتماعية؟ إنني أعمل لوحدي، حتى لا أستطيع، بأيّ شكل من الأشكال، أن أخلق أيّ

استبداد. كيف أستطيع أن أساهم لوحدي في التحضير للثورة اللااجتماعية، لتَهيئة الإنسانية للمجتمع الحر؟ عليّ أن أختار بين طريقتين، بين طريقتين ممكنتين؛ طبعاً، إذا لم يكن بإمكاني أن أستعملهما معاً. والطريقتان هما العمل غير المباشر، أي الدعاية، والعمل المباشر، من أي نوع كان.

«فكرت أولاً في العمل غير المباشر، أي في الدعاية. أي دعاية أستطيع أن أقوم بها لوحدي؟ إلى جانب الدعاية التي يمكن أن يقوم بها المرء بالحديث مع هذا وذلك، بالصدفة واستغلال كلّ الفرص، ما كنت أريد أن أعرف هو إنْ كان العمل غير المباشر يشكِّل طريقاً يمكن أن أوجِّه عبره نشاطي كفوضوي بعزم، بشكل يعطي نتائج محسوسة. وجدتُ بسرعة أنّ ذلك ليس ممكناً. لست خطيباً ولا كاتباً. معنى هذا: كنت قادراً على الكلام أمام الناس، إذا كان لا بد من ذلك، وقادراً على أن أكتب مقالة صحفية؛ لكن ما كنت أريد أن أتأكد منه هو إن كان مزاجي الطبيعي يشير إلى أنني، لو تخصَّصت في العمل غير المباشر، وفي أي واحد من نوعيه أو فيهما معاً، يمكن أن أحصل على نتائج عملية أكثر للفكر الفوضوي من أنْ أخصِّص مجهوداتي في اتجاه آخر، لكن، العمل هو دائماً أكثر فائدة من الدعاية، إلا في حالة الأفراد الذين يشير مزاجهم إلى أنهم دعاة بالدرجة الأولى: كبار الخطباء، القادرون على إلهاب الجماهير وجذبها وراءهم، أو كبار الكتاب، القادرون على السحر والإقناع بكتبهم. لا أظن أنني مزهوّ كثيراً بذاتي، لكن لو كنت كذلك، لن أكون، على الأقل، مزهواً بتلك الصفات التي لا أملكها. وكما قلت لك، لم أعتقد أبداً أنني خطيبٌ أو كاتب. لذا تخليت عن فكرة

العمل غير المباشر كطريق أضعه لنشاطي الفوضوي. وباستبعاد باقي الطرق، كنت مضطراً لاختيار العمل المباشر، أي المجهود المطبَّق على ممارسة الحياة، على الحياة الواقعية. لم يكن الذكاء، بل العمل. جيد. ليكن كذلك.

«كان عليّ، إذن، أن أطبق على الحياة العملية الطريقة الأساسية للعمل الفوضوي التي شرحتها من قبل: محاربة الأوهام الاجتماعية دون خلق استبداد من نوع جديد، مع خلق شيء من الحرية المستقبلية، إن كان ذلك ممكناً، لكن، كيف يتمّ ذلك على مستوى الممارسة؟

«لكن، ما معنى أن نحارب على مستوى الممارسة؟ أن نحارب على مستوى الممارسة هو الحرب، **إنها** حرب، على الأقل. كيف تُشن الحرب على الأوهام الاجتماعية؟ وقبل كل شيء كيف تُشن الحرب؟ كيف يُهزم العدو في أي حرب؟ بإحدى الطريقتين: إما بقتله، أي تحطيمه؛ أو سجنه، أي إخضاعه، وجعله غير فعال. لم يكن بإمكاني **تحطيم** الأوهام الاجتماعية؛ وحدها الثورة الاجتماعية كان بإمكانها **تحطيم** الأوهام الاجتماعية. إلى حدود تلك الفترة، كان من الممكن إفساد الأوهام الاجتماعية فقط، وتركها تتمايل، معلَّقة بخيط رفيع؛ لكن أن تُحطم، فلم يكن ذلك ممكناً إلا بحلول المجتمع الحر والسقوط المُسلّم به للمجتمع البورجوازي. كل ما كنت أستطيع القيام به في هذا الصدد هو أن أحطم - التحطيم بمعنى القتل الجسدي - بعض العناصر الممثلة للمجتمع البورجوازي. درستُ المسألة، فوجدتها حماقة. لنفترض أنني قتلت واحداً أو اثنين، أو اثني عشر من ممثلي استبداد الأوهام الاجتماعية... ما

هي النتيجة؟ هل ستضعف الأوهام الاجتماعية؟ لا ، لن تضعف. إنّ الأوهام الاجتماعية ليست مثل وضعية سياسية يمكن أن تكون مرتبطة بمجموعة محدودة من الأشخاص، بشخص واحد أحياناً. أسوأ ما في الأوهام الاجتماعية هو الأوهام الاجتماعية نفسها، في مجملها، وليس الأفراد الذين يمثلونها، لأنهم يمثلونها فقط. ثم، إن هجوماً من نوع اجتماعي غالباً ما ينتج عنه ردّ فعل؛ ولا يبقى كلّ شيء على ما كان، بل يسوء أحياناً. وفوق ذلك، لنفترض، كما هو طبيعي، أنه بعد هجوم، يقبضون عليّ؛ يقبضون عليّ ويقصُونني، بشكلٍ أو بآخر. ولنفترض أنني قتلت حوالى اثني عشر رأسمالياً. إلى ماذا سيؤدي هذا، في نهاية الأمر؟ إلى إقصائي، ليس بالقتل، بل بالسجن أو النفي فقط، تفقد القضية الفوضوية عنصراً محارباً؛ أما الاثنا عشر رأسمالياً الذين نحَّيتهم، فلن يكونوا اثني عشر عنصراً فقدهم المجتمع البورجوازي، لأنّ العناصر المكوّنة للمجتمع البورجوازي ليست عناصر محاربة، بل مجرد عناصر سلبية، لأنّ «النضال» لا يوجد في عناصر المجتمع البورجوازي، بل في مجمل أوهامه الاجتماعية، التي تشكل أساس هذا المجتمع. طيب، الأوهام الاجتماعية ليست أشخاصاً، يمكن أن نطلق عليهم الرصاص. . . هل فهمت جيداً؟ لم أكن جندياً في جيش يقتل اثني عشر جندياً من الجيش العدو؛ كنتُ مثل جندي يقتل اثني عشر مدنياً من أمة الجيش الآخر. إنه قتل غبي، لأنه لا يقصي أي محارب. . . لذا، لم أكن أستطيع أن أفكر في تحطيم الأوهام الاجتماعية، لا جزئياً ولا كلياً. كان عليّ أن أخضعها، وأهزمها بإخضاعها، وأجعلها غير فعالة.

أشار إليّ فجأة بسبابته اليمنى.

- هذا ما فعلته!

سحب فوراً حركته، وتابع.

- حاولت أن أرى ما هو أول وأهمّ وَهْم من الأوهام الاجتماعية. سيكون هو ذلك الوهم، أكثر من غيره، الذي يجب عليَّ أن أحاول إخضاعه، وجعله غير فعال. وأهَمّ وهْم، على الأقل في عصرنا، هو المال. كيف أُخضعُ المال، أو، بعبارة أدقّ، قوة المال واستبداده؟ بأن أتحرّر من تأثيره، من قوته، وأن أصبح بالتالي خارج تأثيره، وأجعله غير فعال على الأقل بالنسبة لي. فيما يخصني **أنا**، هل فهمت؟ لأنني أنا من يحاربه؛ أما إذا تعلق الأمر بجعله غير فعال بالنسبة إلى كلّ الناس، فذلك لن يعني فقط إخضاعه، بل **تحطيمه** أيضاً، لأنّ ذلك سيمثل وضع حدٍّ لوهم المال كله. طيب، لقد أثبتُّ لك أنه لا يمكن «تحطيم» أي وهم اجتماعي إلا عن طريق الثورة الاجتماعية، التي تأتي مع الثورات الأخرى أثناء انهيار المجتمع البورجوازي.

كيف يمكن لي أن أصبح فوق قوة المال؟ أسهل طريقة هي أن أبتعد من دائرة تأثيره، أي من الحضارة؛ وأذهب إلى الريف لآكل الجذور وأشرب من ماء الينابيع؛ أمشي عارياً وأعيش مثل حيوان، لكن، هذا، حتى إنْ لم يكن القيام به ينطوي على أي صعوبة تُذكر، لن يكون محاربة وهم اجتماعي؛ بل إنه لن يكون قتالاً: سيكون هروباً. في الواقع، مَن يتحاشى خوض معركة لا يُمنى فيها بالهزيمة. لكنه مهزوم معنوياً، لأنه لم يقاتل. يجب أن تكون الطريقة مختلفة، طريق محاربة وليس هروباً. كيف أُخضع المال بمحاربته؟ كيف أتحاشى تأثيره واستبداده، دون أن أتفادى الاصطدام به؟ لم تكن هناك

سوى طريقة واحدة: **أن أحصل عليه**، أن أحصل عليه بكميات كافية كي لا أشعر بتأثيره؛ وكلما ازدادت الكميات التي سأحصل عليها، كلما سأكون أكثر تحرراً من هذا التأثير. وعندما بدا لي هذا الأمر بكلّ وضوح، بكل قوة قناعتي الفوضوية، وكل منطقي كرجل متبصر، دخلت في المرحلة الحالية من فوضويتي: المرحلة التجارية والبنكية.

ارتاح قليلاً من العنف، المتصاعد من جديد، والناتج عن حماس عرضه. بعد ذلك، تابع روايته بشيء من الحماس.

- هل تذكر هاتين الصعوبتين المنطقيتين اللتين قلت لك إنهما برزتا في بداية مشواري الفوضوي الواعي؟... وهل تذكر أنني قلت لك إنني وجدت لهما آنذاك حلاً اصطناعياً، يعتمد على العاطفة وليس على المنطق؟ ثم إنك بدورك أشرتَ، وكنت على صواب، أنني لم أجد لهما حلاً منطقياً...

- نعم، إنني أذكر ذلك...

- وهل تذكر ما قلت لك بعد ذلك، عندما وجدت في نهاية الأمر الطريقة الحقيقية للفوضوية، أي أنني وجدت لهما حلاً نهائياً، أي عن طريق المنطق؟

- نعم.

- طيب، انظر كيف تمّ حلهما... الصعوبتان كانتا: ليس **طبيعياً** أن نعمل من أجل أي شيء، مهما كان، دون جزاء **طبيعي**، أي أناني؛ وليس **طبيعياً** أن نبذل مجهوداً من أجل أيّ هدف دون أن نحصل على جزاء أن نعرف **أنّ هذا الهدف يمكن إدراكه**. هاتان كانتا هما الصعوبتان؛ والآن عليك أن تنتبه جيداً كيف تم حلهما بطريقة عملي الفوضوية التي قادني تفكيري المنطقي لأكتشف أنها

الطريقة الحقيقية. . . لقد كانت نتيجة تلك الطريقة هي أن أغتني؛ **إذن هذا جزاء أناني**. إن هذه الطريقة تسعى للحصول على الحرية، فبعد أن أُصبح فوق قوة المال، أي بعد أن أتحرر منها، **أحصل على الحرية**. صحيح أنني أحصل على الحرية لوحدي فقط، ولكن، كما أثبتّ لك، الحرية للجميع لا يمكن أن تأتي إلا بتحطيم الأوهام الاجتماعية، بواسطة الثورة الاجتماعية، وأنا لوحدي لا أستطيع القيام بالثورة الاجتماعية. هاته هي النقطة المحددة: إنني أحصل على الحرية التي يمكنني أن أحصل عليها، لأنه، طبعاً، لا يمكنني أن أحصل على تلك الحرية التي لا يمكنني الحصول عليها. . . وانظر جيداً: بالإضافة إلى أن التفكير المنطقي يبيِّن أن هذه الطريقة هي الطريقة الحقيقية الوحيدة، فإن كونه يحلّ تلقائياً الصعوبات المنطقية، التي يمكن أن تعترض أي مسلسل فوضوي، دليل آخر على أنه الطريقة الحقيقية الوحيدة.

«كانت تلك هي الطريقة التي اتبعتها. اجتهدت من أجل إخضاع وهم المال، بالاغتناء. تمكنت من ذلك. تطلَّب ذلك بعض الوقت، لأن الصراع كان طويلاً، لكني تمكنتُ من ذلك. لا داعي لأحكي لك كيف كانت حياتي البنكية والتجارية. يمكن أن يكون ذلك مفيداً، خصوصاً في بعض الجوانب، لكنه قد يكون خارج موضوع حديثنا. اشتغلت، وكافحتُ، وربحت مالاً، اشتغلتُ أكثر، وكافحتُ أكثر، وربحت مالاً أكثر؛ على أيّ حال ربحت مالاً كثيراً. لم أعر اهتماماً للوسائل؛ أعترف لك يا صديقي أنني لم أعِرْ اهتماماً للوسائل؛ استعملتها كلها: الاحتكار، والمغالطات المالية، بل حتى المنافسة غير القانونية. ولم لا؟ إذا كنت أحارب الأوهام الاجتماعية غير

الأخلاقية وغير الطبيعية بامتياز، لماذا يجب أن أعير اهتماماً للوسائل؟! إذا كنت أناضل من أجل الحرية، لماذا يجب عليّ أن أراعي الأسلحة التي أحارب بها الاستبداد؟! إنّ الفوضوي الغبي، ذلك الذي يرمي القنابل ويطلق الرصاص، يعلم جيداً أنه يقتل، ويعلم جيداً أنّ مذهبه لا ينصّ على عقوبة الموت. يحارب فساداً بجريمة، لأنه يظنّ أن تحطيم هذا الفساد يستحق ارتكاب جريمة. إنه غبي نظراً إلى الطريقة التي يعتمدها، لأنه، كما بيّنتُ لك، هذه الطريقة خاطئة وتؤدي إلى عكس النتائج المطلوبة **كطريقة فوضوية**؛ أما بالنسبة **إلى أخلاق** الطريقة فهي ذكية. إذن، طريقتي كانت صائبة، وأنا، كفوضوي، كنت أستعمل بشكلٍ مشروع كلّ الوسائل من أجل أن أغتني. اليوم حققت حلمي المحدود كفوضوي عمليّ ومتبصِّر. إنني حر. أفعل ما أشاء، طبعاً، في إطار ما يمكن القيام به. كانت الحرية هي شعاري كفوضوي؛ طيب، لديّ الحرية، تلك الحرية التي يمكن الحصول عليها الآن في مجتمعنا الناقص. أردتُ أن أحارب القوى الاجتماعية؛ حاربتها، بل إنني هزمتها.

- كفى! كفى من فضلك! قلت له. هذا جيد، لكن هناك شيء غاب عنك. من شروط طريقتك، كما بيّنت بنفسك، أن لا تخلق الحرية فحسب، بل كذلك أن لا تعمل على خلق **الاستبداد**. طيب، أنت خلقت الاستبداد. أنت بصفتك محتكراً، وبنكياً، ورجل أعمال من دون ضمير - أستسمح، لكن هذا ما قلته أنت - خلقت من الاستبداد ما يخلقه أي ممثل آخر للأوهام الاجتماعية، التي تقول إنك تحاربها.

- لا، يا صديقي، إنك مخطئ. أنا لم أخلق استبداداً. إنّ

الاستبداد، الذي من الممكن أنه نتج عن عملي في محاربة الأوهام الاجتماعية، لم يكن نابعاً مني، وبالتالي فأنا لم أخلقه؛ **إنه يوجد في الأوهام الاجتماعية، وأنا لم أضفه إليها**. ذلك الاستبداد هو **الاستبداد الخاص بالأوهام الاجتماعية**؛ وأنا لم أكن أستطيع، ولم أقصد، **تحطيم** الأوهام الاجتماعية. للمرة المائة، أقول لك: وحدها الثورة الاجتماعية يمكنها **أن تحطم** الأوهام الاجتماعية؛ وقبل ذلك، العمل الفوضوي الجيد، كالذي أقوم به، لا يمكنه سوى أن **يُخضع** الأوهام الاجتماعية، وتخضع فقط بالنسبة إلى الفوضوي الذي يمارس هذه الطريقة، لأن هذه الطريقة لا تسمح بإخضاع أوسع لتلك الأوهام الاجتماعية. إنّ الأمر لا يتعلق بألا نخلق استبداداً، بل بألّا نخلق **استبداداً جديداً**، ألّا نخلق استبداداً **حيث لم يكن يوجد**. إن الفوضويين، حين يشتغلون مجتمعين، ويؤثرون بعضهم في بعض كما قلت لك، يخلقون فيما بينهم استبداداً آخر، بالإضافة إلى الأوهام الاجتماعية؛ وهذا استبداد جديد، بالتأكيد. أنا لم أخلق هذا الاستبداد، بل لم يكن بإمكاني أن أخلقه، **نظراً إلى الظروف الخاصة بطريقتي**. لا، يا صديقي، أنا لم أخلق غير الحرية. لقد حررت **شخصاً**. حررت نفسي. لأن طريقتي، وهي الطريقة الحقيقية، كما بيَّنتُ لك، هي التي لم تسمح لي بتحرير أشخاص آخرين. حررت ما استطعت أن أحرر.

- جيد... أتفق معك... لكن عليك أن تنتبه إلى أنه بحكم هذه الحجة قد يظن المرء أن لا أحد من ممثلي الأوهام الاجتماعية يمارس الاستبداد...

- ولا يمارسه. إن الاستبداد ينتمي إلى الأوهام الاجتماعية

وليس إلى الأشخاص الذين يجسدونها؛ هؤلاء هم، بطريقة ما، **الوسائل** التي تستعملها الأوهام لممارسة الاستبداد، كما أنّ السكين هي الوسيلة التي يمكن أن يستعملها المجرم. وطبعاً، إنك لا تظن أنه بإزالة السكاكين ستُزيل المجرمين... انظر... حطِّم كل الرأسماليين في العالم، دون أن تحطم الرأسمال... في اليوم الموالي، وفي أيادي أخرى، سيواصل الرأسمال استبداده **بواسطتهم**. حطِّم، ليس الرأسماليين، بل الرأسمال؛ كم سيبقى من الرأسماليين؟ هل فهمت؟...

- نعم؛ إنك على حق.

- يا بني، إنّ أقصى، أقصى، أقصى تهمة يمكنك أن توجِّهها إليّ هي أنني زدت قليلاً - قليلاً جداً - استبداد الأوهام الاجتماعية. إنّ الحجة عبثية، لأنه كما قلت لك، الاستبداد الذي كان عليّ أن أخلقه، ولم أخلقه، مختلف، لكن، هناك نقطة ضعف أخرى: بالمنطق نفسه، يمكنك أن تتهم جنرالاً يحارب من أجل بلده بأنه تسبَّب له في ضرر بسبب موت أفراد من جيشه اضطر للتضحية بهم لينتصر. من يذهب للحرب، عليه أن يتوقع أي شيء. لنحصل على ما هو أهم، والباقي...

- هذا جيد... لكن، انتبه، هناك أمر آخر... الفوضوي الحقيقي لا يريد الحرية لنفسه فقط، بل للآخرين أيضاً... أظن أنه يريد الحرية للإنسانية جمعاء...

- من دون شك، لكن، لقد قلت لك إنه، حسب الطريقة التي اكتشفتُها وهي الطريقة الفوضوية الوحيدة، على كلّ واحدٍ أن يحرِّر نفسه. شخصياً، حررت نفسي؛ قمت في الوقت نفسه بواجبي تجاه

نفسي وتجاه الحرية. لماذا لم يفعل الآخرون، أصدقائي، الشيء نفسه؟ أنا لم أمنعهم من ذلك. كانت ستكون جريمة لو أنني منعتهم من ذلك، بل إنني لم أمنعهم بأن أخفي عنهم الطريقة الفوضوية الحقيقية؛ ما إن اكتشفتها حتى أخبرتهم بها جميعاً بكل وضوح، لكن الطريقة نفسها كانت تمنعني بالقيام بأكثر من هذا. ماذا كنت أستطيع أن أفعل أكثر من هذا؟ هل أجبرهم على اتِّباع هذه السبيل؟ حتى لو كنت أستطيع ذلك ما كنت لأفعل، لأنّ ذلك يعني سلبهم الحرية، وهذا كان يتنافى مع مبادئي الفوضوية. هل أساعدهم؟ هذا أيضاً لم يكن ممكناً للسبب نفسه. أنا لم أساعد أحداً قط، ولا أساعد أحداً، لأنه هذا الأمر، بما أنه يحدّ من حرية الغير، يتنافى مع مبادئي أيضاً. إنّ النقد الذي توجِّهه إليّ هو أنني لست سوى شخص واحد. لماذا تنتقد أنني قمتُ بواجبي في أن أحرِّر، قدر ما استطعت؟ أليس من الأفضل أن تنتقدهم لأنهم لم يقوموا بواجبهم؟

- بلى، يا رجل، لكن هؤلاء الأشخاص لم يقوموا بما قمتُ به، لأنهم، طبعاً، كانوا أقلّ ذكاء منك، أقل عزيمة، أو...

- آه، يا صديقي: هذه فوارق طبيعية، وليست اجتماعية... والفوضوية لا علاقة لها بهذه الفوارق. إنّ درجة ذكاء أو عزيمة الفرد لها علاقة به وبالطبيعة؛ ولا دخل للأوهام الاجتماعية في المسألة. هناك صفات طبيعية، كما قلت لك، يمكن أن تنحرف نظراً إلى البقاء الطويل للإنسانية في الأوهام الاجتماعية؛ لكن الانحراف لا يكمن في **درجة** الصفة، التي هي هبة خالصة من الطبيعة، بل في **تطبيق** الصفة. طيب، إن مسألة الغباوة أو غياب العزيمة لا علاقة لها بهاتين الصفتين، بل بدَرَجَتيهما فقط. لذا أقول لك: هذه هي الفوارق

الطبيعية المطلقة، ولا أحد يملك سلطة عليها، ولا يطالها أي تغيير اجتماعي، كما أنه لا يمكن أن يجعلني أنا أطول قامة وأنت أقصر. . .

«إلا إذا. . . إلا إذا، في حالة هؤلاء الأشخاص، كان تأثير الانحراف المتوارث للصفات الطبيعية قوياً بحيث يطال المزاج أيضاً. . . نعم، إذا ولد شخص ليكون عبداً، ولد طبيعياً ليكون عبداً، وهو، بالتالي، غير قادر على القيام بأي مجهود ليتحرر. . . لكن في هذه الحالة. . . ، في هذه الحالة. . . ، ما علاقته بالمجتمع الحر، أو بالحرية؟ إذا ولد شخص ليكون عبداً، فإن الحرية، ما دامت منافية لطبيعته، ستكون استبداداً بالنسبة له.

كان هناك صمت قصير. فجأة، ضحكت بصوتٍ عالٍ.

- في الواقع، أنت فوضوي. على أيّ حال، إن ما يثير الضحك، حتى بعد الاستماع إليك، هو مقارنة حالتك بحالة الفوضويين الآخرين. . .

- يا صديقي، لقد قلت لك، وبرهنتُ على ذلك، وسأعيده عليك الآن. . . الفرق الوحيد هو الآتي: هم فوضويون فقط على مستوى النظرية، وأنا فوضوي على مستوى النظرية والممارسة؛ هم فوضويون روحانيون، وأنا فوضوي علمي؛ هم فوضويون يطأطئون الرأس، وأنا فوضوي يحارب ويحرّر. . . باختصار: إنهم أشباه فوضويين، وأنا الفوضوي.

ثم غادرنا الطاولة.

لشبونة، يناير 1922

خمس حكايات ذات مغزى

سر روما

عندما وصل القيصر متأخراً إلى ساحة المعركة، رفعوا بسرعة أمام عينيه رأس بومْبِيّو. أجهش القيصر بالبكاء، فاندهش الحاضرون للأمر. مَن كان يحمل الرأس، أنزلها بعض الشيء؛ كان مذهولاً، والرأس ثقيلة لأنه كان يرفعها بطرف ذراعه.

- طيب، هل يستحق هذا الأمر نصراً؟ سأل القيصر.

- هذا صحيح - قال من يتبعه، لأنه لم يجد ما يقوله.

ثم أردف القيصر «كان صديقي، ورفيقي. كان رومانياً، وجندياً. . . ».

ثم قال: «وصلتُ متأخراً. . . ».

أومأ مرافقه بحركة جوفاء، فأدار القيصر ظهره المقوس ألماً.

«وصلتُ متأخراً. . . »، ردّد. «كنتُ أود أن أقتله بيديّ هاتين».

مغزى الحكاية:

احذروا الدموع، عندما تسيل من عيون رجال السياسة.

سارايْفا
أو
سارايْفا والفتيات

في ما مضى كان يسكن في مدينة بورْتو طالب شاب يدعى سارايْفا وينحدر من أقاليم الشمال. كان هذا الطالب يمتاز عن زملائه بدقة فطنته وبراعته في الإلقاء. كلما قال أحدهم جملة، مهما كانت بسيطة، وظن سارايْفا أنها تنطوي على كذب، اعتبر الكذبة تستهدف عبثاً صخرة فطنته؛ فيرفع سبّابة يده اليمنى نحو جفن عينه اليمنى، يُنزلها في حركة تنمّ عن دهاء كبير، ثم يقول في تهديد مرح لمخاطبه: «أنا سارايْفا!» فيدرك الآخر أنه لن يفلح في خداعه. ثم ترتفع السبابة حرة طليقة.

اعتبر باقي الشبان هذه المعرفة الدقيقة سخيفة في حدّ ذاتها، ممّا دفعهم إلى أن يدبِّروا مكيدة، يستغلون فيها هوس سارايْفا بفن الإلقاء، كي يشوهوا صورته ويتخلصوا منه نهائياً. علماً منهم بما ينطوي عليه ذلك الهوس المستمر بألّا ينخدع، اتفقوا مع عدة فتيات من معارفهم، ينحَدِرن من أسرٍ شريفة وأوساط محترمة، بإقامة لقاء في بيت والدَي إحداهن، يدعون إليه سارايْفا ليقوم بالإلقاء. واتفقوا على أنه بعد تقديم سارايْفا واستضافته ليظهر موهبته في فن الإلقاء

سيكشفون، في الأخير، عن أنفسهم بقهقهات عارمة. وظنوا أن ساراﻳْفا لن يفلت من هذه المكيدة، وسيؤدي ثمن كلّ ما أصابهم من سخط جراء دهائه.

شرحوا لساراﻳْفا أن ثمة عدة نساء يرغبن في الاستماع إلى إلقائه، لأنهن يعرفن علوّ كعبه في هذا الفن، واتفقوا معه على أن يحضروا ويقدموه في بيت تلك السيدات، وأن عليه أن يأتي في ليلة محددة وساعة مقررة.

ممتناً، قَبِل ساراﻳْفا العرض واتفق الطرفان، لكن، حين وصل إلى البيت، بدأ ساراﻳْفا يفكر في الدعوة، وما لبث أن بدأ ينتابه الشك. «ثمة شيء ما في هذا الأمر»، فكر ساراﻳْفا. ووحيداً، أمام المرآة، رفع سبّابة يده اليمنى نحو عينه اليمنى، في حركة ازدراء نابعة من فطنته، «لكن، أنا ساراﻳْفا!»، وهو يشير إلى نفسه.

ثم فكر، «أي حفل هذا الذي دُعيت إليه؟» ولم يتأخر في اكتشاف طبيعته. إن الأمر يتعلق بملء بيتٍ ما بعدد من المومسات، يظهرن كأنهن سيدات وفتيات محترمات، ثم القيام بدعوته - هو ساراﻳْفا! - ليقوم أمامهن بدور الإلقاء. استدلال منطقي، واستنتاج طبيعي. فاتخذ ساراﻳْفا ذهنياً ما ينبغي من احتياطات.

حلَّ الليل، وجاء ساراﻳْفا. وذهب رفقة كل الرفاق إلى البيت الذي اجتمعت فيه السيدات في انتظاره. في البداية، ومن أجل إدهاش الحضور، قال المقدمون، بعد أن فُتح بشكل مفاجئ باب القاعة، التي ظهر أنها كانت تعج بالنساء «سيداتي العزيزات، نقدم لكُنَّ السيد ساراﻳْفا!»، كمن يقدم واحداً من أشهر رجالات هذا العالم.

حينئذٍ، اندفع سارايْفا، بفطنته وحيويته، نحو وسط القاعة، فاتحاً ذراعيه، صارخاً مبتهجاً، ثم صاح في وجه كل السيدات، «إيه، يا معشر المومسات!».

ثم استدار، بعد ذلك، نحو مقدميه الشاحبين، خفض رأسه ثم رفع كالعادة سبّابته اليمنى نحو جفنه الأيمن المعتاد، «لقد نسيتم مَن أكون؛ أنا سارايْفا»...

مغزى الحكاية:

1. أن لا يكون المرء سارايْفا.
2. في حالة الشك، يجب على المرء أن يكون سارايْفا، لأنه في هذه الحالة كان سارايْفا هو المغفّل، لكن الآخرين هم مَن وقعوا في المكيدة.

حين تؤمن أمة ما إيماناً راسخاً بذاتها، فإنها تحتقر الآخرين حتى وإن أخطأت وكانت هُزْأة. في الحقيقة، من الأحسن أن يكون المرء سارايْفا. لأنه علينا ألا ننسى ما ترتب عن هذا الأمر من نتائج عملية. فالفتيات تعرَّضن للشّتم، والشبان للإهانة: والمنتصر هو سارايْفا.

أنا، حضرة الدكتور

ذات مساء، دخلتُ إلى محلٍّ لبيع القمصان اعتدت أن أشتري منه وأنا أفكر في اقتناء ربطة عنق. كان البائع يعرفني، وبما أنه كان حراً من أيّ زبون فقد حيّاني بابتهاج: «مساء الخير، حضرة الدكتور».

«أنا لست دكتوراً»، قلت له، وهذا صحيح. «لماذا تظن أنني دكتور؟».

«آه، في الحقيقة كنت أظن...»، أجابني بوضوح.

طلبت ربطات عنق، اخترتُ منها واحدة، ثم أدّيت. أثناء ذلك، جاء بائع آخر، كان يعرفني بدوره منذ مدة، ثم اقترب من زميله.

«مساء الخير» قلتُ لهما معاً.

انحنى البائعان بكل لطف في الوقت نفسه، ثم قالا كأنهما شخص واحد:

«مساء الخير، حضرة الدكتور، شكراً جزيلاً».

مغزى الحكاية:

حين يريدُنا الرأي العام أن نكون دكاترة، فعلينا أن نكون كذلك. إننا، في الحياة العامة، ما يظنه الناس، ولسنا حتى ما يمكن

أن نتظاهر به. إن شخصيتنا الاجتماعية، بالنسبة لنا جميعاً، أو التاريخية، بالنسبة إلى المشاهير، هي مجرد فكرة عنا لا علاقة لها بنا. إنّ رجل الدولة الذي يدرك هذا الأمر يملك مفتاح السيطرة على العالم. طبعاً، ربما قد تعوزه الباب؛ لكن هذا الأمر قد يكون من ضرب القدر.

31 يناير 1932

الحمار والضفتان

جرت العادة أن تُحكى للأطفال، عندما يبلغون سناً يصبحون فيها بلهاء، حكاية حمار يصل إلى ضفة أحد الأنهار لكنه لا يستطيع العبور إلى الضفة الأخرى.

النهر بدون قنطرة، والحمار لا يعرف السباحة، وما من زورق كي يحمله. فماذا يفعل الحمار؟ بعد طول تفكير، يقول الطفل إن الحمار سيتخلى عن قصده. عندئذٍ، يقول الشخص الراشد، الذي وضع اللغز: هذا ما فعله الحمار، لكن كان أولى به أن يقول: إنك مثل الحمار، لأنه بهذا الشكل تكون النادرة ظريفة، إن كانت فعلاً كذلك.

لكن القصة لم تكن بهذا الشكل، لأن الحمار بنفسه هو مَن حكاها إليّ. وصل الحمار إلى ضفة النهر، وكان يريد العبور إلى الضفة الأخرى. وبالفعل - وبهذا الخصوص فإن الحكاية حقيقية كما تُروى - تأكد الحمار من أن أ) ليس ثمة قنطرة، ب) ليس ثمة زورق، ج) هو، أي الحمار، لم يكن يعرف السباحة.

حينئذٍ فكر الحمار: ما عساه يفعل إنسان لو كان مكاني؟ وبعد طول تفكير، خمن: سيتخلى عن قصده. طيب، قال: إنني مثل الإنسان.

لأنه في هذا اللغز، لم يفكر أحد في شيء واحد: الإنسان بدوره يتخلى عن قصده.

مغزى الحكاية:

السياسة الحزبية هي فنّ قول الشيء نفسه بطُرق مختلفة. لذا من الأحسن أن يُدلي المرء بقوله بعد الآخرين، لأنه ما دام الإنسان هو مَن يقول اللغز، فإن الحمار يتفوق عليه.

شْواريشْ وبيرِيْرا

كان شْواريشْ وبيريْرا، الموظفان في القسم نفسه، عدوّان لدودان. لم يكن ثمة من أمر له علاقة بالعمل، لا يختلف في شأنه اثنان، إلا ويكون موضع خلاف بينهما. ورغم أن أياً منهما لم يكن يصل إلى حدّ الاعتداء على الآخر، فإنهما سرعان ما يتبادلان الانتقادات والشتائم. ينعت كلاهما الآخر بالحيوان، والماكر، واللّص؛ ولا يتوقفان عن التعاير والتقادح. لا يلتقيان إلا ليتشاجرا، ولا يوجهان الكلمة لبعضهما إلا ليتبادلا الانتقادات والشتائم.

ذات مرة، كان شْواريشْ، وهو أكثرهما ذكاء، أي فظاظة وغلاظة، يحكي لأحد أصدقائه من خارج القسم، المشاهد المعتادة مع بيريْرا، فسأله الصديق: «لكن، بالله عليك، لِمَ لا تسحقه بشيء يكون أفظع من أي تهكم ساخر؟». «أي شيء؟»، سأله شْواريشْ؛ «هل أُشبعه ضرباً؟» فردّ الصديق «لا، إنني لا أقصد ذلك... قمْ بما هو أحسن: لُذْ بالصمت... إنه يتفوق عليك في التهكم الساخر؛ إذن عليك أن تجد استهزاء أقوى من استهزائه. إذا شتمك فانظر إليه ولا تقل شيئاً. إذا واصل الشتم، ابقَ على الحال نفسه. إذا ما بدأ يرغي ويزبد، لا تحرك ساكناً. سترى أنه لن يكون هناك تهكم ساخر يمكن أن يصدر عنه أقوى ممّا لا تقوله أنت. ما لا تقوله أنت يمكن

أن يكون كل شيء؛ وما يصدر عنه لن يكون، ربما، في كثير من الأحيان، أكثر من مجرد قول».

فكر بيرِيْرا في الأمر فوجد النصيحة، ولو مؤقتاً، صائبة. وعكس ما يمليه الحذر، عمل بها. لكنه، عكس ما يحدث حين لا يقوم المرء بما يمليه الحذر، كان موفقاً في اختياره.

في اليوم التالي، الذي لم يكن يوم عطلة، نشب نزاع كان بيرِيْرا هو مَن دفع سْواريشْ إلى افتعاله. وعلى مسمع من الآذان الصاغية لبقية الموظفين، بدأ بيرِيْرا ينتقد مخاطبه. فتوالت الصفات والنعوت، وذكر بمبالغته المعهودة كل قبائح سْواريشْ. وفي لحظة معينة، بما أن سْواريشْ لم يقل شيئاً، بل نظر إلى مخاطبه بطريقة غامضة وغير مبالية، بدأ بيرِيْرا يخفف من لهجته. توالت الأحداث متتابعة، واستمر بيرِيْرا يخفف من لهجته، وصار لون وجهه شاحباً. بعد خمس دقائق كان شبه أخرس، صوته وتعابير عينيه ينمان عن دموع كادت تنهمر. حينئذٍ ابتلع ريقه بعض الشيء؛ ثم توجه إلى سْواريشْ بصوت مرتعش، وقال: «سْواريشْ، هل أنت مغتاظ مني؟».

إذا أردتَ الحرب، فاستعد للسلم[1].

(1) كتب بيسوا هذه الجملة الأخيرة باللغة اللاتينية لكنه قلب المعنى تماماً ليتوافق مع نهاية النص. فهو يكتب Si vis bellum, para pacem، أي ما معناه «إذا أردتَ الحرب فاستعدّ للسلم» عوض العبارة الأصلية Si vis pacem, para bellum ، أي ما معناه «إذا أردت السلم، فاستعد للحرب» (المترجم).